لوتس
روايات مصرية للجيب
2
Looloo
www.dvd4arab.com
فارس من الشرق

لـوتـس

فى قلب التاريخ ، تسكن حضارة مصر الفرعونية .
بكل جمالها وقوتها .
حقائقها وأساطيرها .
نورها ونارها .
من قلب النيل نبعت هذه الحضارة .
كزهرة لوتس عطرة الرائحة .
ندية الملمس .
متألقة الألوان .
وإلى قلب الماضى ، نبحر فى قارب من البردى .
نجوب أجواء زمان ولّى .
مخلفًا آثاره التى لا تزول .
شامخةً فى وجه الدهر .
وفى وجوه حاملى معاول الهدم والتشويه .
إنها زهور أينعت منذ فجر الوجود .
فتفتحت أوراقها .
وانتشرت أنوارها إلى كل الحضارات الإنسانية الأخرى .
إنها زهور لوتس .
فى قلب مصر .. القديمة ..

محمد سليمان

١ـ سـقوط ..

السقوط العنيف .. المفاجئ .. والمهين ..

زحفت العقارب من الغرب بخوذاتها السوداء اللامعة تحت وهج الشمس ، هبطت الأسهم والحجارة على المدينة من السماء عبر الأسوار العالية ، أغرقت الدماء الشوارع والبيوت والتهبت بالنار هامات النخيل السامقة ..

فانحنت مهزومة ..

من بعيد بدا برج (بابل) الذى يناطح بقامته السحاب كأنه يبكى ، وسط الصرخات والدموع ، وصيحات النصر الظافرة التى يطلقها جيش العقارب المنتصر ..

سقط تمثال الأمير (آشوردان) الضخم ؛ (آشوردان) طاغية المدينة الأوحد الماثل بملامح جرانيتية فى الميدان الكبير ، أمام القصر المنيف الذى لم يكن أحد العامة ليجرؤ على مجرد التفكير فى الاقتراب منه ، سقط مشنوقًا بحبل غليظ ..

الرعاع الآن يزحفون نحو القصر الكبير وقصور النبلاء الأخرى من كل حدب وصوب ، يروون عطش الفاقة والحاجة بنهب المقتنيات الثمينة ؛ دروع الذهب وأوانى الفضة والرياش الفاخر وتماثيل العاج والأبنوس والأحجار الكريمة فى دراما عبثية غير مفهومة ، تبدأ معها (بابل) عصرًا جديدًا تحت نير الاحتلال ..

وتحت سطوة العقارب ..

ـ الوداع يا مدينتى ..

قالها السمين الذى يئن تحت وزنه الحصان ، وهو يلقى بنظرة أخيرة على المدينة المحتضرة من بعيد ؛ قبل أن ينفذ حصانه بصعوبة عبر الثقب الخفى فى سور المدينة الشاهق الارتفاع ، خلف حصانين آخرين ..

لم يكن آخر العابرين من هذا الثقب الوحيد فى الجدار الشرقى لسور (بابل) ، وإنما ...

ـ قل إلى لقاء يا (آنو) !

الصوت أنثوى النبرة ، صارم اللهجة ، والملامح حادة ..

كانت تقود حصانها فى فروسية نادرة ، على ظهرها سيف ضخم مستقر فى غمده ، وكانت آخر العابرين من ثقب السور ..

ـ نعم يا (سيدورى) ..

قالها أحد العابرين فى البداية ، وهو يلوى عنان جواده ، ويرسل عينه الحولاء إلى السور الشاهق ، وإلى ألسنة النار المندلعة خلفه ، قبل أن يضيف فى حماسة لم تناسب الموقف :

ـ .. سنعود ، حتمًا سنعود !

هزت (سيدورى) شعرها الهائش ، كأنما أرضاها قوله ، وتحولت بعينيها الضيقتين إلى أول العابرين ، قائلة كأنها تطمئن نفسها ، أو كأنما تؤكد يقينها :

ـ (بابل) لا حياة لها بغير (آشوردان) !

صمت .. وانحناء .. وبخار الغضب المكتوم ..

لم ينظر (آشوردان) إليها ، لم ينظر إلى أحد منهم ، ظل على صهوة جواده يحدق فى الأرض التى سيفارقها خائبًا مدحورًا ، لا يرى أمامه إلا انحدار ملامحه ؛ الشعر الطويل المجدول ضفائر صغيرة ، اللحية الدائرية الكثة ، الفم الغليظ ، العينين الكاويتين ، الخوذة الذهبية المتوهجة ، والعضلات المفتولة أسفل الرداء المعدنى ، تلك الملامح التى سقطت مع تمثاله فى قلب الميدان ..

السقوط الموجع للتمثال والمدينة ؛ آخر مشهد رآه قبل الفراق المحتوم ..

ربما بغير رجعة ..

فى الغالب إلى الأبد !

طال الصمت بينهم إلا من صهيل الخيول والصيحات واحتضارات النخيل والحقول والجنود المهزومين من خلفهم ، صمت لم يقطعه إلا سؤال (آنو) المضطرب :

ـ إلى أين الآن ؟!

لا جواب إلا الحيرة فى العيون ، والموت المُحتدم خلف الأسوار ..

قال ذو العين الحولاء :

ـ إلى حيث يمكننا أن نلملم شتات أنفسنا بلا ريب ..

قال (آنو) واضطرابه يتعاظم :

ـ كل الأماكن تصلح لهذا يا (صاف) ..

قال (صاف) :

ـ يجب أن نكون قريبين من (بابل) حتى نرجع عندما ..

ولم يجد ما يتم به عبارته ، إذ بدت إمعانًا فى الخيال العابث ، أو فى العبث الخيالى..

دارت (سيدورى) بجوادها حول الثلاثة فى مهارة ، وتوقفت بجوار (آشوردان) لتقول :

ـ الرأى للفارس ..

وقبل أن يرفع (آشوردان) جبهته المنكسة ، وقبل أن ينظر إليها بعينين ترقرقت فيهما دموع الخيبة والهزيمة النكراء ، وقبل أن يحرك لسانه فى فمه بكلمة كسيفة ،

هبطت كرة النار الملتهبة من خلف السور فوق رءوسهم مباشرة ..

ـ احذروا ..

هتف بها (صاف) محذرًا ، وقفزت (سيدورى) نحو (آشوردان) الذاهل فى غفلة ، ليسقطا معًا من فوق الحصان الذى انطلق يعدو ، قبيل لحيظات من سقوط الكرة النارية فى النقطة التى كان يقف أسفلها تمامًا ..

وانعكس اللهب البرتقالى على الوجوه الشاخصة ..

ـ هل أنت بخير يا (آشوردان) ؟!

سألته (سيدورى) فى لهفة وهى تعتدل بسرعة من سقطتها ، وسقط قلبها بين قدميها عندما لم تجد منه جوابًا ، وعندما لم تند عنه أية حركة ..

ـ هل ؟!

غمغم بها (آنو) همسًا دون أن يجرؤ على الإكمال ، لكن (آشوردان) خيَّب الظنون السوداء كلها عندما تحرك ليعتدل فى بطء ، فزفرت (سيدورى) وسارعت تنفض عن زيه المعدنى الغبار واليأس :

ـ بخير .. أنت بخير يا فارس (بابل) الأوحد !

كأنها لازالت تطمئن نفسها بهذا الحديث الأجوف كالطبل !

نظر نحوها ، فرأت فى عينيه دموعًا محتبسة وهو يغمغم فى جمود :

ـ الغرب ..

أسرعت تضع الخوذة الذهبية الساقطة فوق رأسه ، وهى تسأله :

ـ نمضى إلى الغرب ؟!

قال كأنما لم يسمعها :

ـ جيراننا فى الغرب ..

سأله (صاف) دون أن يترجل عن فرسه :

ـ تقصد (طيبة) ؟!

قال (آشوردان) وهو يتحامل على نفسه لينهض ، مزيحًا غمد سيفه إلى موضعه الأول خلف ظهره :

ـ نريد السيف الماسى .. سيفنا الماسى !

تهللت أسارير (سيدورى) وهى تهتف فيه مغتبطة :

ـ سيف القوة .. أنت تقصد سيف القوة الذى ...

وصفقت فى جذل طفولى :

ـ .. رائع !

أشار (آشوردان) بكفه نحو الأفق الصحراوى البعيد :

ـ سننتظر هناك .. عند حدود غابة الجليد ..

سأل (آنو) ولما يزل اضطرابه العظيم :

ـ ومن سيحضر السيف من (طيبة) ؟!

ـ أنا !

قالتها (سيدورى) على الفور ، وعيناها تموج بالألق وعنفوان الحماسة المشبوب ..

ـ لكن ..

كاد (صاف) يعترض ، غير أن قول (آشوردان) أنهى المسألة :

ـ لا تتأخرى ..

واعتلى فرسه من جديد ، وكذلك فعلت (سيدورى) وهى تقول :

ـ سأنطلق نحوها الآن ..

اقترب هتاف جنود العقارب ، وبرز أحدهم بخوذته السوداء من فوق قمة السور ؛ لكنه لم يلمح الواقفين بالأسفل إلى جوار كرة اللهب ، فأشار (صاف) إليه قائلاً وقد انتقلت إليه عدوى الاضطراب :

ـ يجب أن نسرع ..

ـ الآن ..

هتف بها (آشوردان) ثم لكز بطن جواده بقدمه فانطلق يسابق الريح نحو الشمال ، ودون كلمة زائدة انطلق خلفه (آنو) و(صاف) ..

وحدها (سيدورى) اتخذت مسار الجنوب ، فى رحلتها نحو (طيبة) ..

رحلتها الأخيرة !

★ ★ ★

ضحك الرجل العقرب حتى ظهرت نواجذه ، وعب من كأسه الضخم قبل أن يمسح فمه بكمه فى همجية ، وقبل أن يهتف فى توحُش :

ـ (بابل) لنا ..

ضحك عقرب آخر ، وصبَّ الشراب من قارورة مغطاة بالقش إلى كأس قائده :

ـ الفضل لعبقريتك أيها العقرب الكبير !

صاح العقرب الكبير ، صاحب الخوذة التى تبرق فى مقدمتها جوهرة حمراء :

ـ جنود العقارب لا يهزمون يا (دلفى) ..

قال رجله المقرب (دلفى) ، وهو يرمق الهرج والمرج فى الميدان عبر شرفة القصر الذى سقط بسقوط المدينة :

ـ ما لم نتوقعه هو استجابة شعب المدينة لنا ، كنا نتصور أنهم سيدافعون عن (آشوردان) حتى الرمق الأخير ، لا أن يستجيبوا لنا وينصبوا باللعنات عليه وعلى عهده ..

تجشأ العقرب الكبير بعد جرعة الشراب الجديدة ، وهتف :

ـ الشعوب تقف دائمًا فى صف الأقوى يا (دلفى) ..

ـ خطأ ..

هتاف أنثوى امتزج بمواء لا يند إلا عن قط مدلل ..

ـ ما هذا ؟! من أنتِ ؟!

هتف العقرب الكبير مقطبًا وهو ينظر فى اتجاه الصوت ، حيث وقفت المرأة الساحرة .. وعندما نصف المرأة ها هنا بأنها ساحرة ، فإننا نعنى حقًا ما نقول !

شعر طويل يغطى الظهر حتى نهايات الأقدام ؛ ويبرز منه الذراعان المنتهيان بالأظفار الطويلة المطلية .. وجه فى منتصف سواد الشعر تبرز فيه العينان الكحيلتان والمظللتان بألوان قوس قزح ، والأنف المستدق ، والشفتان الرفيعتان اللامعتان .. ثم القوام السمهرى الذى يكسوه الرداء الوردى الفضفاض ، والهريرة الصغيرة التى تموء ناعسة عند القدمين الحافيتين ، وقد طليت الأظفار بنفس لون أظفار اليدين ..

ساحرة بكل ما تحمله الكلمة من معان ، حتى إنك تظن أنها لا تقف على أرض القصر الرخامية ، وإنما هناك ما يرفعها لتقف على الهواء .. أو السحاب .. أو الأثير ..

غمغم (دلفى) ذاهلاً وقد سقطت قارورة الشراب على الأرضية ، ليسيل منها ـ كالدم ـ فيمتزج الأحمر بالأبيض :

ـ (عشتار) ؟!

بسمتها ونظرة عينيها ، السر الذى يجعلك غير قادر على النظر إلا نحوها ..

هتف العقرب الكبير منزعجًا وقد دار الشراب برأسه :

ـ أتعرفها يا (دلفى) ؟!

صوتها أيضًا فيه من السحر الكثير :

ـ أخالك لا تجهلنى بدورك أيها العقرب الكبير ..

هتف فيها وقد بلغ الانزعاج منه مبلغه :

ـ من تكونين ؟! وكيف دخلت إلى هنا دون إذنى ؟!

قالت فى تحدٍ ، دون أن يفقد صوتها سحره أو عذوبته :

ـ لا أحتاج الإذن لدخول أى مكان .. لا منك ولا من غيرك !

صاح العقرب الكبير وهو يلقى نحوها بكأسه :

ـ ماذا تقولين أيتها الـ ... ؟!

وابتلع لسانه عندما رأى الكأس تقف فى منتصف المسافة بينه وبينها ، ويدور حول محوره دون أن يسقط بقية الشراب فى داخله ، كأنه معلق فى الهواء .. أو السحاب .. أو الأثير ..

تألقت عينا (عشتار) ، وشحب وجه العقرب الكبير موتًا ، بينما غمغم (دلفى) بعد تردد :

ـ إنها (عشتار) يا مولاى .. ساحرة (بابل) فيما مضى ..

لم يقو العقرب الكبير على التفوُّه بشىء ، وقالت (عشتار) دون أن ترفع بصرها عن الكأس الذى ما زال يدور حول محوره فى الهواء ، بسرعة تتزايد :

ـ أجل ، الساحرة التى نفاها وغد يدعى (آشوردان) خارج (بابل) منذ سنين بعيدة ، والتى أضمرت من يومها الانتقام الذى يتحقق اليوم ..

الكاس يدور ، ويدور ، ويدور ..

والقطة الناعسة تموء ..

والعقرب الكبير يحاول أن يسأل :

ـ أنتِ ؟! أنتِ ؟!!

لكنه لا يفلح ..

ـ أنا التى منحتكم صك دخول المدينة لترفعوا على أسوارها رايات النصر السوداء ، وأنا التى فى يدها أن تمنحكم بقية النصر المنقوص ..

الكأس يدور ، والهرة تموء ، و(دلفى) متجمد ، والعقرب الكبير يستنكر :

ـ منقوص ؟!

قالت (عشتار) دون أن ترفع بصرها عن الكأس التى تدور حول نفسها فى جنون :

ـ رأس (آشوردان) ..

التفت العقرب الكبير صائحًا فى رجله المقرب :

ـ ألم تقبضوا عليه حتى الآن يا (دلفى) ؟!

جفل (دلفى) للحظة ، قبل أن يتلفت إلى قائده مجيبًا فى بهوت :

ـ ليس بعد ..

صراخ :

ـ تبًّا لكم أيها الحمقى !

هدوء :

ـ قلبنا القصور بحثًا عنه ، هو إما مختبئ بين العامة أو...

صمت (دلفى) هنيهة قبل أن يردف فى مقت لما يقول :

ـ .. أو هارب ..

هم العقرب الكبير بمزيد من الصراخ والاستهجان ، عندما فوجئ بهتاف رجله :

ـ .. انتبه يا مولاى ..

لكن الوقت لم يكن كافيًا للانتباه ، فقد فوجئ العقرب الكبير ـ للمرة الثانية فى أقل من الثانية ـ بكأسه والشراب الذى كان معلقًا فى الهواء يرتطم برأسه ، ليسقطا معًا على الأرض ، وصوت الساحرة الساحر يخترق أذنيه :

ـ أكره ألا أكون جزءًا مما يحدث !

نظرات (عشتار) ، وابتسامتها ، وجمود (دلفى) ووجومه ، واعتدال العقرب الكبير وسؤاله الحاذق :

ـ ماذا تريدين ؟!

ـ الانتقام ..

وفجأة ، تحولت عذوبة الصوت إلى هدير شلال غاضب :

ـ .. سأكون كاهنة (بابل) الأولى ، وسأعلق على مدخل المعبد رأس (آشوردان) ..

بادلها العقرب الكبير غضبًا بغضب ، وهو يحاول الاعتدال واقفًا :

ـ ومن سيمنحك حق الكهانة يا هذه ؟!

ضحكت (عشتار) ، ثم قالت كأنها عاصفة مدوية :

ـ لا أحد يمنح (عشتار) ما لها من حقوق ، (عشتار) تمنح الآخرين حقوقهم إن رأت أنهم يستحقون ..

تردد (دلفى) للمرة الألف قبل أن يقول فى حرج :

ـ (عشتار) هى من منحتنا قوة دخول (بابل) يا مولاى ..

واستنكر العقرب الكبير للمرة الألف :

ـ امرأة تمنحنا القوة ؟! نحن جيش العقارب ؟!

هزّ (دلفى) رأسه نفيًا قبل أن يقول :

ـ ليست القوة المادية ما أعنيه ، بل أعنى قوة المعرفة .. فقد أمدتنا بما نحتاج إلى معرفته حول نقاط ضعف العدو وثغرات السور حول المدينة وكيفية استمالة الجيش المدافع والسيطرة على ...

صاح العقرب الكبير فى عناد ومكابرة :

ـ ما بهذا انتصرنا يا صاح ، وإنما ..

وكانت مقاطعة (عشتار) صارمة كحد الحسام :

ـ بل بهذا وحده كان النصر حليفكم ، والفضل لكراهيتى الدفينة ..

صاح العقرب الكبير فيها بنفس العناد وبعين المكابرة :

ـ لقد تحقق انتقامك إذن .. ألا يكفيكِ هذا ؟!

عادت تضحك وتقول :

ـ أنا وحدى أحدد ما يكفينى ..

ثم التهبت نبراتها وهى تقول :

ـ .. وأنا وحدى أحدد كيف تسير الأمور ها هنا ، أهذا مفهوم ؟!

وشفعت قولها بنظرات سددتها إلى خوذة العقرب الكبير ، لترتفع عن رأسه ببطء ، مع ملامح الهلع المنطبعة فوق سحنته ..

ولم يكن هناك ما هو أفضل من هذه الملامح ، كإجابة حاسمة عن سؤالها ..

ومع ارتفاع الخوذة إلى أعلى أكثر وأكثر ، بدا أن ما تقول مفهوم تمامًا ..

★ ★ ★

ألم رهيب فى الساق اليسرى ، والدماء تغلى فى العروق ،

والعرق يتصبب على وجهها الذى احمر من فرط الإرهاق ، والتعب ، والمرض ..

تحاملت (سيدورى) على نفسها ، وأمسكت بالعمود الرخامى المنقوش بالرموز الهيروغليفية إلى جوارها ، فى محاولة أخيرة لكتمان الآهات المتألمة ، ولكبت صيحة كادت تفلت منها لولا ضغطها الرهيب على الأسنان ..

لم يبق إلا القليل ..

هكذا فكرت ، وهكذا تحاملت على نفسها أكثر وأكثر ..

ـ سيقابلك الفرعون أيتها السيدة ..

التفتت (سيدورى) إلى الحارس الذى ظهر فجأة أمام مدخل البلاط الملكى ، وقالت ماسحة العرق فوق جبهتها بظهر كفها :

ـ الفارسة .. أنا فارسة من الشرق ..

ابتسم الحارس لتعليقها وقال :

ـ ليكن ، ستقابلينه أيتها الفارسة ، ولكن من دون هذا السيف المحمول فوق ظهرك ..

ناولته السيف ، وهى تسأله مغمضة عينيها :

ـ متى ؟!

تناول منها السيف ، متعجبًا لقدرتها على حمله ـ وهو بهذا الوزن ، وهى المرأة الضعيفة ـ قبل أن يجيبها :

ـ الآن ، على الفور ..

وقادها إلى البلاط ، عبر ممر طويل ، أدى فى النهاية إلى القاعة الفسيحة التى ينتصب فى صدرها العرش الذهبى ، وفوقه الفرعون بزيه الرسمى النظيف ، وبابتسامة ترحيب غير متكلفة ، وبـ :

ـ مرحبًا برسولة صديقنا (آشوردان) أمير (بابل) ..

شمَّت (سيدورى) رائحة البخور الزكية ، ورأت ما حولها من رياش ذكرها بالقصر الذى خربته الأيادى المخربة ، قبل أن تمسح المزيد من ندى العرق فوق وجهها ، وهى تتقدم من الملك (تحتمس الثالث) ، مغمغمة فى تهالك :

ـ لم يعد كذلك يا مولاى الأمير !

انعقد حاجبا (تحتمس) وهو يقول :

ـ لم أعد أميرًا ، أنا الآن ملك الوجهين .. ألا ترين التاج فوق رأسى ؟!

قالت وهى ترى الموجودات مهتزة وغائمة من حولها :

ـ عذرًا يا مولاى ، لم تبلغنا الأنباء فى (بابل) بعد ..

ازداد حاجباه انعقادًا ، وهو يقول فى توتر :

ـ أنا الآخر لم تبلغنى أنباء مفادها أن (آشوردان) لم يعد أميرًا على (بابل) !

قالت وهى تلهث ، ووجهها يحمر أكثر :

ـ حدث هذا منذ ثلاثة أيام فقط ، هى مدة الرحلة التى قطعتها إلى هنا يا مولاى الأمير .. أقصد ، الملك !

مزيد من العبوس :

ـ هل قامت ثورة ما لديكم ؟!

ومزيد من التحامل :

ـ بل اجتياح يا مولاى .. اجتياح كاسح ..

ـ غزو ؟!

ـ جيش العقارب ..

ـ وسقطت (بابل) ؟!

ـ بأسهل مما ظن مخلوق ..

تفكر (تحتمس) للحظة، قبل أن يقول:

- (آشوردان) حليف لنا، هل يريد أن نرسل له قوات من جيوشنا تساعده على ؟!

بجرأة متسرعة قاطعته (سيدورى):

- السيف ..

- ..... ؟!

- لايطلب (آشوردان) منكم إلا سيف القوة، الذى أهداكم إياه فى إحدى المناسبات ..

صمت (تحتمس) مليًا وهو يحدق فى (سيدورى) التى أوشكت على الانهيار، قبل أن يقول فى لهجة حازمة:

- هذا أبسط ما يمكننا أن نقدمه له ..

انتفضت (سيدورى) وهى تحاول القول:

- و.. هذا .. كل ما .. ما يريـ .. ـده !

حدجها بنظرات امتزج فيها الإشفاق بالرغبة فى المساعدة، قبل أن يسألها:

- ومن سيحمل السيف إليه ؟!

انتفضت أكثر كطير ذبيح وهى تتمتم:

- أ .. نـ .. ـا !!!

وانهارت فجأة ساقطة فى مكانها كمعبد من الرمال، فانتفض (تحتمس) من مجلسه وهرع نحوها، وكذلك فعل الحارسان اللذان يقفان خلف العرش بحرابهما المدججة ..

مال (تحتمس) نحوها غير عابئ بكونه ملكًا، وأمسك بمعصمها محاولاً أن ..

- لقد ماتت !

نطق بها عندما لم يجبه نبض أو تنفس أو حراك، موجهًا حديثه إلى الحارسين اللذين لم ينبسا ببنت شفة، وتبادلا نظرة حيرة عارمة ..

وعندما رأى (تحتمس) عقربًا صغيرة سوداء تغادر مكمنها من بين ملابسها بسرعة، راكضة فوق أرضية القاعة الرخامية نحو لامكان، فهم الكثير ..

وهاجت فى أعماقه الأفكار، وماجت ..

★ ★ ★

٢ ـ سيف ..

القرص البرتقالى ينزلق خلف الجبال ، والألوان الساخنة والباردة تتصارع فى نهاية الأفق الممتد فى غير انتظام ..

من خلف صخرة كبرى محشورة بين الرمال والجبال تعالى وقع السنابك ، ثم برز الحصان الأسود القافز فوقها مخترقًا الريح لترتطم حوافره بالأرض فى النهاية ، شاهدة على مهارة ممتطيه وفارسه ؛ الرجل الأصلع تمامًا ، الذى تنمُ ملامحه عن فتوة قديمة فى عهد مضى ..

وبرغم توقفه المباغت ، واستدارة الحصان لينظر مع فارسه الواقف على أعتاب الشيخوخة إلى الصخرة ، ظل وقع السنابك يتعالى ..

ومن خلف نفس الصخرة برز الحصان الأبيض قافزًا بدوره ، ومع الصهيل المتعالى كانت قدماه تستقران على الأرض ، لكن التواء بسيطًا فى قائمته الخلفية أدى به إلى السقوط مثيرًا سحابة من الغبار ، وشاهدًا على قلة خبرة ممتطيه وفارسه ..

الشاب الأسمر ، المجعد الشعر ، المفتول العضلات ، الذى نفض عن ملابسه البسيطة الغبار وهو ينهض حانقًا ومستاءً ..

ـ لا بأس يا (حورى) ..

قالها الأصلع فى رزانة ، وهو يرمق الشاب الذى مد ذراعيه ليحمل فرسه على النهوض ..

ـ .. ستتقن الفروسية بالمزيد من التدريب ..

قال (حورى) وهو يتحسس القائمة الخلفية للحصان :

ـ ظننت أننى أتقنتها بالفعل ، معلم (باحرى) !

ابتسم (باحرى) وقال فى أبوة :

ـ مازال الطريق طويلاً ، لاتكن عجولا يا فتى ..

فى عناد قال (حورى) وهو يربت بكفيه على ظهر حصانه :

ـ لأجرب مرة أخرى ، حصانى لم يصب بسوء من أثر السقطة ..

رماه (باحرى) بنظرة مطولة قبل أن يسأله :

ـ وأنت ؟!

بنفس العناد :

ـ ماذا عنى ؟! هأنذا أقف أمامك ..

بلهجة ذات مغزى عاد (باحرى) يسأله :

ـ ذراعك ينزف !

أمسك (حورى) بذراعه الأيمن ، ولم يتأثر من مرأى الدماء إذ هتف :

ـ مجرد جرح بسيط، هذه الأمور تحدث دائمًا فى التدريبات ..

عقد (باحرى) ذراعيه أمام صدره وهو يغمغم :

ـ ماذا تريد أن تثبت لنفسك يا فتى ؟!

هتف (حورى) فى اندفاع :

ـ أثبت لنفسى ؟! لا شىء البتة .. كل ما هنالك أننى أريد إتقان التدريب أكـ ...

قاطعه معلمه فى صرامة :

ـ بل تريد أن تثبت لنفسك أنك الأفضل مهما كنت غير قادر على الإثبات ، ولعمرى فهذه مقبرة الفروسية الحقيقية !

اعترى (حورى) صمت طويل ، وشردت نظراته فى المجهول البعيد مغمغمًا :

ـ مقبرة الفروسية الحقيقية ؟!

ـ عندما تفقد القدرة على سماع أى صوت إلا صوت ذاتك ، وعندما يصبح همك دائرًا حول محور نفسك ، عندها تكون قشرة فارس ، وروح طاغية !

غمغم (حورى) ذاهلاً ، وهو ما يزال شاردًا فى البعيد :

ـ طاغية ؟!

قال (باحرى) فى صرامة ، وهو يستدير بجواده فى عكس اتجاه الشمس الغاربة :

ـ ستنال الآن قسطًا إجباريًا من الراحة ، وسنعاود التدريبات فى وقتها المحدد ..

ضم (حورى) قبضتيه ليعتصرهما فى غيظ ، وقال من بين أسنانه المنضغطة :

ـ ليكن !

وكاد يقفز فوق جواده عندما ..

ـ أتعشم أن تكونوا قد افتقدتمونى !

قالها الشاب النحيل ، ذو اللحية الخفيفة والعينين الخضراوين ، الذى برز من خلف الصخرة الكبيرة ممتطيًا جحشًا صغيرًا يقوده بعصا صغيرة من البوص ، فبدا منظره عجيبًا إلى حد الضحك ، أو السخرية ..

ـ تأخرت كالمعتاد يا (محب) !

قالها المعلم (باحرى) باسمًا وهو يستدير بجواده نحوه ، وقال (حورى) نافثًا غيظه فى شخص رفيقه :

ـ يا لبراعتك فى الفروسية !

رفع (محب) ناظريه نحوه وهو يقول فى مرح :

ـ كلّ فارس على طريقته يا صديقى ..

ـ صدقت ..

قالها (باحرى) فى تأييد ، وانطلق (محب) يقول على إثره :

ـ فاتتنى سقطة الفارس المروعة !

سأله (حورى) وهو يغلى كمرجل :

ـ من أخبرك ؟!

ابتسم (محب) قائلاً :

ـ سمعت كل شىء ، والسماع نصف الرؤية كما يقولون ..

غمغم (حورى) فى غضب مكتوم :

ـ لن يتكرر هذا أبدًا ..

وقال (باحرى) رامقًا تلميذه بنظرة ماء نار :

ـ الفارس لا يخجل من أخطائه ولا يعمل على إخفائها ، وإنما يعترف بها ويعمل دومًا على إصلاحها ..

غمز (محب) رفيقه قبل أن يقول مشاكسًا :

ـ ما زال الطريق نحو الفروسية طويلاً إذن ..

قال (باحرى) وقد أغمض عينيه فى إجلال :

ـ إنه دومًا كذلك ..

ـ إنهم يستدعوننا فى معبد (لوتس) ..

فتح (باحرى) عينيه إثر قول (حورى) ، ورأى الأخير يشير نحو الجبل العالى القريب ، جبل (طيبة) الغربى الذى يحتضن المعبد بين جنباته ، والذى تتصاعد من خلفه أدخنة وردية وزرقاء ..

ـ هذه علامة استدعائكما بالفعل ..

قالها (باحرى) مقطبًا ، فضرب (محب) قبضته المضمومة فى راحته المفرودة هاتفًا كطفل مقبل على لعبة مفضلة :

ـ إنها مهمة جديدة لنا معًا ..

غمغم (حورى) كالمحدث نفسه ، وهو ينظر نحو الأدخنة المتصاعدة من بعيد :

ـ إنها دومًا كذلك !

★ ★ ★

الصومعة الغارقة أبـدًا فـى الصمت .. فـى الظـلام .. فـى الظـلال .. فـى البخـور .. فـى الأبديـة .. والضـوء ينبـع مـن الخفاء ..

المعلم الأكبر (تحوت) الجالس أبدًا خلف لحيته البيضـاء الكثيفة ، الطويلة ، يقرأ فى كتاب الخلود ، ويجدل المجد من خيوط المستحيل ..

واللقاء الجديد ..

خطا (حورى) و(محب) إلى الداخل متجاورين بعد أن اجتازا الستار الكثيف ، وتوقفت الكلمات على الشفاه انتظارًا لكلمات أخرى على شفاه أخرى ..

ـ زهرتا اللوتس من جديد ..

ما زال الصوت الجهورى الذى ينطق به (تحوت) كلماته غير متناسب مع هيئته الذاوية ، لكنها أمور اعتدناها ها هنا فى (لوتس) ..

.. ومـازالا فـى انتظـار الكلمـات الأخـرى ، وكانـا يعلمـان أنهما لن ينتظرا طويلاً ..

ـ جاهزان للعمل ؟!

أشار (محب) إلى (حورى) قائلاً فى بساطة تلقائية :

ـ (حورى) مصاب فى ذراعه الأيمن ، معلم (تحوت) !

زمجر (حورى) فى غضب ، وهو يرمق (محب) بنظرة نارية :

ـ أنا مستعد للعمل على الدوام ..

أتى قول (تحوت) قاطعًا كالعادة :

ـ أراهن عليك هذه المـرة يـا (حـورى) ، فـلا تحـاول أن تخذلنى ..

هتف الفتى فى حماسة مندفعة :

ـ لن أخذلك قطعًا ، وستجدنى دائمًا رهن إشارتك يا معلمى ..

وغمغم (محب) فى تهكم غير مسموع :

ـ الرهان على الفارس المغوار دائمًا فى كل المرات !

أو ـ للدقة ـ تهكم ظنه غير مسموع :

ـ كل فارس على طريقته يا (محب) !

أدهش قول (تحوت) (محب) ، لكنه تغلب علـى دهشـته بسرعة وقال :

ـ صدقت يا معلمى ، أنا أومن بهذا فعلاً ..

ـ لنسرع إذن ، فلانملك من الوقت إلا أقل القليل ..

حفزتهما عبارة (تحوت) ، واسترعى ذلك الصندوق انتباه (محب) لأول مرة منذ دخوله ، ربما لأن عينيه قد بدأتا فى الاعتياد على الظلام ..

صندوق خشبى فى حجم أريكة صغيرة ، مطعم بالصدف ومرصع بالنقوش الفنية البديعة ، ألوانه مبهجة وتشكيلاته تبعث فى النفس بهجة وانطلاقًا ، ويشع منه بريق يخطف الأبصار متوسطًا المسافة بينهما وبين المعلم (تحوت) ..

(حورى) أيضًا رآه ، وحدس أنه لابد من علاقة بين وجوده ، وبين المهمة ..

وانطلق (تحوت) يتحدث :

ـ تعلمان أن لنا جيرانًا كثيرين ، وحلفاء فى كل جهة من الجهات المحدقة بحدود بلادنا ، قد نعتمد عليهم وقت الشدة وقد يعتمدون علينا ، وفى أوقات السلم ـ كالفترة التى مرت بالبلاد إبان حكم الملكة السابقة (حتشبسوت) ـ نتبادل الخبرات والهبات كنوع من إظهار المودة والصداقة فى حالات ما ، أو المبايعة على الولاء والتبعية فى حالات أخرى ..

وانطلق يفسر بعد مقدمته القصيرة :

ـ .. مدينة (بابل) الواقعة فى أقصى الشرق ، على ضفة النهر الساتر من أعلى لأسفل بعكس مايجرى نهرنا (حابى) المقدس ، كانت من ضمن حلفائنا .. مدينة مستقلة يحكمها أمير يدعى (آشوردان) بحد السيف وبقوة الطغيان ، لا هم له إلا تحقيق طموحاته فى فتح المدن المجاورة ، وفى التصدى لهجمات الجيوش الطامعة ، فمن معركة إلى أخرى ، ومن حرب إلى طحن ، ولا يلتقط الشعب أنفاسه برهة إلا استعدادًا لبيع الغالى والرخيص فى سبيل الدفاع عن بقاء المدينة ، وعن بقاء (آشوردان) ..

هتف (محب) مستنكرًا :

ـ أهذه حياة ؟!

انطلق (تحوت) فى تجاهل متعمد لسؤاله :

ـ منذ أيام قليلة سقطت (بابل) فريسة لجيش زاحف من الغرب دون هوادة ، جيش العقارب المتشح بالسواد .. سقطت المدينة تحت جحيم النار والدم والزحف ، واستطاع الأمير أن يهرب بصعوبة مع عدد قليل من حاشيته ، متجهًا إلى غابات الجليد المخروطية فى الشمال ، بعد أن أرسل لنا برسول يطلب النجدة ..

سأل (حورى) فى اهتمام :

ـ قوات تساعده على دحر العدوان ؟!

انطلق (تحوت) يجيبه :

ـ بل وسيلة أخرى لإثبات تفوقه الفردى .. لقد أرسل فى طلب سيف ..

هتف (محب) مستغربًا :

ـ سيف ؟! فقط ؟!

قال (تحوت) :

ـ سيف ، لكن لاكأى سيف .. إنه سلاح كان قد أهداه إلى الأمير (تحتمس) عندما زارنا فى (طيبة) منذ سنوات قلائل ، سيف ماسى له من القوة ما يعجز اللسان عن وصفها .. حتى إن بعض حاشيته يصرون على تسميته بسيف القوة !

خمن (حورى) مشيرًا إلى :

ـ سيف فى داخل هذا الصندوق ؟!

هزّ (تحوت) رأسه الأشيب ، قائلاً :

ـ لقد أرسل رسولة من حاشيته حتى تأخذه إليه ، لكنها ماتت فى بلاط الملك (تحتمس) متأثرة بلدغة عقرب كان كامنا بين ملابسها ..

قطب (حورى) وهو يغمغم محيطًا ذقنه بأصابعه :

ـ عقرب ؟!

قال (تحوت) :

ـ مصادفة عجيبة ، عقرب وجيش عقارب ..

عاد (حورى) يغمغم :

ـ مصادفة ؟!

وسأل (محب) :

ـ وماذا يمكن أن يفعل السيف فى مواجهة جيش جرار ؟!

أجابه (حورى) مستفيقًا من تأملاته :

ـ الكثير لو كانت فيه القوة الكافية ..

قطب (محب) وأشاح بيده عن رفيقه هاتفًا :

ـ لا يبدو هذا مقنعًا ..

قال (تحوت) منهيًا الحوار قبل أن يبدأ :

ـ ليس علينا إلا أن نمنح حليفنا مطلبه ، فلو طلب جيوشًا لأمددناه ، لكنه لم يطلب إلا السيف ، والسيف سيفه فى البداية وفى النهاية ، ليس علينا إذن إلا أن نعيده إليه ..

فرقع (محب) بإصبعيه هاتفًا :

ـ ولأن الرسولة ماتت ، فعلينا نحن إذن أن نحمله إلى حيث يختبئ فى غابة الجليد المخروطية ..

ـ هذا صحيح ..

سأل (حورى) ، وكان سؤاله تحصيلاً لحاصل :

ـ سنرحل إلى (فينيقيا) إذن ؟!

ـ الآن ، وليس الغد ..

ثم أشار (تحوت) بيديه المعروقتين إلى الصندوق :

ـ .. ستحملاه على ظهر حصان قوى ، وتسلماه إلى (آشوردان) ..

سأل (محب) متظاهرًا بالبراءة :

ـ نحن الاثنين فقط ؟!

وكانت الإجابة متوقعة برغم كل شىء :

ـ بل ستصحبكما زهرة اللوتس الثالثة ..

سأل (محب) مجددًا وقد بدأ وهج البراءة يخبو فى لهجته قليلاً :

ـ وكيف ستلقانا ؟!

أجابه (تحوت) فى لهجة أنهت الأمر :

ـ هذه مهمتها ، ستعرف (نفرو) كيف تجدكما مثل كل مرة ..

بادر (حورى) بالقول وقد فقد قدرته على المقاومة :

ـ هلا ألقينا نظرة على السيف ، معلم (تحوت) ؟!

صمت طال ، قبل أن يقول :

ـ لكما هذا ..

تقدم (حورى) بخطوات تدفعها اللهفة ، وجثا على ركبتيه أمام الصندوق مادًا يديه إلى حافته المغلقة ، فى حين استقر (محب) فى وقفته خلفه ، باهتمام فاتر ..

رفع (حورى) حافة الغطاء ، وتلألأ المكان بالضوء الأبيض الشفاف ، الذى انعكس على وجهه فأضاءه ، وكسا عينيه بغلاف من الانبهار الوسيم ..

السيف فى مكانه داخل الصندوق ، يحيطه حرير أزرق مجعد ، النصل الماسى الشفاف الذى تعبر الأضواء فى أعماقه كأنها أمواج بحر لؤلؤى الماء ، والمقبض الذهبى المرصع بالجواهر البيضاء والزرقاء ، والهتاف يند عن زهرتى لوتس :

ـ يا للـ !!

ويعجز اللسانان عن إيجاد الوصف المناسب ..

فى السيف سحر ما ، حجر جاذب تهوى أفئدة الفوارس نحوه ، صوت ينادى ويملأ الآذان الضعيفة بالهتاف المحموم ، أمسكنى فأنا لك ، ملكُ يمينك ، أنود عنك ، وأضىء العالم بالقوة التى أمنحك إياها ، أنا لك ، أنا لك ، أنا لك ..

لم يع (حورى) إلا وهو يمد يده نحو المقبض ، ثم ...

ـ هذا يكفى !

الهتاف البتار محمولا على نبرات (تحوت) الجهورية ، اتطفأ على إثره الضوء ، وأفاق الواقفان أمام الصندوق بعد أن غابا طويلاً فى السحر والألق ..

ـ .. أغلق الصندوق ، وليبدأ استعدادكما للرحلة ..

امتثل (حورى) صاغرًا ، ونهض كابحًا لهاثه ، وناظرًا إلى المعلم الذى تابع :

ـ .. الآن !

نظر (حورى) إلى (محب) فوجده غارقًا فى الشرود ..

ثم أرسل بصره إلى الصندوق الذى يحوى السيف الماسى ؛ سيف القوة ..

وأدرك بينه وبين نفسه أن الرحلة لن تكون سهلة على الإطلاق !

★ ★ ★

ليل بلا قمر على أرض القمر ؛ أرض الفيروز ..

حصانان رابضان ينامان وقوفًا ، وشعلة من النار تلتهم الحطب الجاف ، وفراشان على الأرض الرملية بين أحضان الجبال الشاهقة ، والليل بلا قمر !

عينا (حورى) اليقظتان تنظران إلى السماء الحالكة السوداء ، ترسمان آلاف الكائنات ، وتحلمان بأمواج من اللؤلؤ تعبر فى نصل سيف من الماس ..

الليل حار وخانق ، والرغبة ملحة ..

النيران كفيلة بإبعاد الذئاب وكل هذه الوحوش التى تصدر صيحاتها الليلية ..

اعتدل جالسًا ، نظر إلى الفراش الذى يجاوره ، (محب) غارق فى النوم والعسل ، بينما الأرق يكويه هو بنار غير محتملة ؛ نار الرغبة الملحة ..

ماذا لو روى ظمأه بنظرة واحدة ؟!

بلمسة وحيدة ؟!

ماذا لو كف النداء الصاخب المحتدم فى أذنيه عن الإلحاح المهين ؟!

نظر إلى الصندوق الماثل إلى جواره ، واعدًا ومتوعدًا ..

زحف على يديه ، واستقر بجوار الصندوق ..

امتدت يداه إلى الحافة المنغلقة ، ورفع الغطاء عن فرجة صغيرة جدًا إلى حد أنها ..

ـ أراك مستيقظًا !

لم يكن (محب) ، وإنما صوت أنثى ، صوتها ..

التفت كالملسوع ، ورآها تقف إلى جوار النار ـ التى بدأت تخبو بعد أن اسود الحطب وتآكل ـ فى عباءتها الواسعة ، وشعرها الطويل مثل شلال ، وعينيها الواسعتين الباسمتين ، وشفتيها المكتنزتين ، والغمازتين ..

كيف لم يشعر بدنوها ؟!

كيف ؟!

ـ (نفرو) ؟!

غمغم مأخوذًا ، واتسعت بسمتها أكثر لتقول :

ـ جيد أنك لم تنس اسمى بعد ..

اعتمد على يديه ليعتدل فى جلسته بجوار الصندوق ، وتحامل على حرجه ليقول :

ـ هذا غير ممكن بالطبع ..

قالت (نفرو) فى مودة :

ـ أنت عاشق للسهر مثلى إذن ..

هزّ رأسه نفيًا ، وقال :

ـ على العكس ، أفضل النوم المبكر لكن الليلة استثنائية ..

أخفت خيبة أملها ، وقالت :

ـ حقًا ؟! ما الاستثنائى فى هذه الليلة ؟!

لم يحر جوابًا ، غير أنه استطاع فى النهاية أن يشير إلى الصندوق فى صمت ..

مطت شفتيها امتعاضًا ، وأشاحت بوجهها عنه لتقول :

ـ ليكن ، لن أنام مبكرًا وسأجمع بعض الحطب لأحافظ على النار حتى الصباح ..

واستدارت مبتعدة ، فقفز هو هاتفًا بصوت خفيض :

ـ انتظرى ، ليس من اللائق أن تفعلى هذا فى عتمة الليل ..

استدارت نحوه بعينين متألقتين ، وسألته :

ـ حقًا ؟!

أجابها متجمدًا :

ـ أنت امرأة ، ومعرضة لأخطار جمة ..

سألته وقد تألقت عيناها أكثر :

ـ فقط ؟!

تجاهل سؤالها بعد أن التقت عيناهما فى نظرة طويلة ، وهم بالذهاب قائلاً :

ـ سأجمع أنا الحطب واستريحى أنتِ ها هنا ..

قالت وهى تهم بالذهاب خلفه :

ـ سأذهب معك ..

نظر نحوها مندهشًا لتلتقى العيون مجددًا فى نظرة أطول ، أنهتها (نفرو) بهز كتفيها والقول فى بساطة مداعبة :

ـ امنعنى لو استطعت !

وجد (حورى) نفسه ـ لدهشته البالغة ـ يبتسم ، وترك

ذراعيه يسقطان على جانبيه فى حركة تسليم بالأمر الواقع ، قبل أن يبتعدا نحو الصحراء المظلمة ..

وكان (محب) المتظاهر بالنوم ينتفض على وقع دقات قلبه داخل الفراش ..

قلبه المفطور !

★ ★ ★

٣ ـ حلم ..

المدى أبيض ، والكهف ثغرة سوداء ..

الأرض جليدية والسماء رماد ، أشجار الأرز المخروطية مكسوة بندف الثلج ، والطبيعة تجمَّدت فى لوحة من سكون ..

دقات متعاقبة من بعيد ، تنبع من وسط عائلة الأشجار ، وتتصاعد فى جوف السماء ، ممتزجة تارة بصرخة قوية ، وتارة بزمجرة مثابرة ، بينما جذوة النار على أعتاب الكهف ـ المحفور فى نتوء صخرى على أطراف الغابة ـ تكاد تخبو تمامًا ..

على أعتاب الكهف ـ المحفور فى نتوء صخرى على أطراف الغابة ـ يجلس (آنو) البدين ، محاولا استجداء بعض الدفء من بين الرماد ، أنفاسه تتكاثف أمام أنفه فى بخار بارد ، وقد عجز فراء الثعلب المنسدل فوق كتفيه عن حجز أدنى قدر من البرودة القارسة التى تعرف بها غابات الجليد ، أو عن إمداده ببعض الدفء الذى أضحى حلمًا بعيد المنال ..

ـ الدماء تكاد تجف فى عروقى ..

قالها (آنو) ثم نفخ بعض الزفير فى قبضتيه المضمومتين ؛ فى محاولة أخرى لاستجلاب بعض الدفء ، فى حين نظر إليه (صاف) بعينه الحولاء ليقول :

ـ تتحدث عن جفاف الدماء فى العروق وأنت بهذه البدانة ؟! ماذا أقول أنا إذن ؟!

فرك (آنو) كفيه البدينين ببعضهما ، ثم قال لـ (صاف) متوددًا :

ـ هلا منحتنى عباءتك الثقيلة هذه يا (صاف) ؟!

ابتسم (صاف) قبل أن يقول فى تهكم صريح :

ـ امنحنى بدانتك وسأفعل !

ثم حول العين إياها إلى الأشجار الماثلة أمامهما ، والتى يشرف عليها الكهف من عل ، ورأى (آشوردان) المنهمك فى الإتيان على جذع إحدى أشجار الأرز ببلطة فى يده ، مصدرًا تلك الدقات والصيحات ، دون أن يستر جسده شىء إلا ملابسه المعدنية ، ليقول :

ـ .. الفارس سيأتينا بالأخشاب بعد أن تسقط الشجرة !

نظر (آنو) إلى حيث نظر رفيقه ، وقال فى تبرم :

ـ إنه يحاول قطعها منذ أكثر من يومين ..

غمغم (صاف) كأنه يحدث نفسه بصوت مسموع :

ـ إحدى خصاله الحسنة أنه لا ييئس أبدًا ..

نظر (آنو) إلى قدميه ، وغمغم بدوره فى شجن :

ـ لا أصدق ما حدث حتى الآن يا (صاف) ، أن يخرج الفارس من (بابل) يجرجر أذيال المهانة ليذوق عار المنفى ، وأن يلاقى كل هذا الجحود والنكران من الرعية والناس ..

قابله (صاف) بغمغمة صادمة فى صراحتها :

ـ كان لابد أن يحدث هذا يومًا يا (آنو) !

هتف (آنو) فيه مصعوقًا :

ـ ماذا تقول ؟!

أطرق (صاف) :

ـ أقول ما تأسى نفسى لكونه الحقيقة يا صديقى ، فهى النهاية الحتمية لفروسية عمياء لا ترى أمام عينيها إلا نفسها ، وليذهب كل ما سواها إلى جحيم الأنانية !

أشار (آنو) إلى الفارس الذى ما برح ينهال ببلطته على جذع الشجرة الثخين :

ـ لكن (آشوردان) ...

قاطعته الهمهمة والإطراق :

ـ (آشوردان) لم ير فى مرآة (بابل) إلا (آشوردان) ، لم يفكر إلا فى حفر اسمه بمداد الذهب على كل حجر فيها ، بل وعلى كل جبهة رجل وشيخ وطفل وامرأة ، لهذا انقلبت عليه (بابل) ، وفوجئ بين عشية وضحاها أن المرآة التى تعكس صورته فى عيون العامة ليست إلا مرآة من وهم ، فكرة فى رأسه لا وجود لها على أرض الواقع ..

عاد (آنو) يهتف مبهوتًا :

ـ ماذا تقول ؟! إن (آشوردان) قد أفنى زهرة شبابه فى خدمة (بابل) ..

رفع (صاف) عينيه إلى رفيقه ، وقال ناظرًا إليه فى عمق :

ـ تقصد أن (آشوردان) قد أفنى زهرة شبابه فى خدمة (آشوردان) ، و(آشوردان) لم يكن ولن يكون يومًا (بابل) .. فشتان ما بين الإنسان وبين المكان ..

وأشار بدوره إلى (آشوردان) وهو يضرب ببلطته الجذع بعيدًا ، ليتابع :

ـ .. انظر إليه ، قد نستفيد من الأخشاب التى سيقطعها

لنا ، لكن السؤال : هل فعل هو ذلك من أجلنا ؟! أم أنـه فعل ذلك ليثبت لنفسه أنه أقوى من الشجرة وأطول قامة ؟!

هزّ (آنو) كتفيه ، واهتز لغده السمين إذ سأل فى استهانة :

ـ وما الفارق ما دمنا سننعم بالدفء فى كل الأحوال ؟!

تبسم (صاف) فى شحوب ، وهو يقول :

ـ الفارق كبير يا عزيزى ، وما دمنا سننعم بالدفء فى كل الأحوال فلن نلتفت إن كان من سيمنحنا إياه (آشوردان) أو جيش من العقارب !

قطب (آنو) وفكر مليًا قبل أن يقول مسلّمًا :

ـ لا أفهم ما ترمى إليه ..

ـ لا تحاول ، فى بعض الأحيان أفشل فى فهم نفسى ..

ـ ولماذا هربت معه إذن إن كنت لا تدين له بالولاء ؟!

صمت (صاف) وقد نكأ السؤال الصريح جراحه ، ونظر نحو (آشوردان) الذى رفع البلطة عاليًا لينهال بها مجددًا على الفجوة التى صنعها فى الجذع ، قبل أن يغمغم :

ـ لأننى مؤمن بقدرته على التغير ..

واتهالت البلطـة تسد الفجوة ، تلاحَم نصل المعدن مع لحاء الخشب التلاحُم الأخير ، قبـل أن تهتز قامة الشجرة ، وتبدأ رحلة السقوط بعيدًا عن عائلتها ..

ـ لقد فعلها ..

هتف بها (آنو) فى حماسة ، وهو يرمـق الشجرة التى تهبط من عليائها فى بطء ..

ـ إنه دومًا قادر على فعلها ..

قالها (صاف) ، وبمجرد أن أنهى عبارتـه ارتطمت الشجرة الساقطة بالأرض البيضاء فى فرقعة عنيفة ، امتزجت بلهاث (آشوردان) المتمزق تعبًا ..

ـ من هذه ؟!

سأل (آنو) وهو يشير واقفًا إلى نقطة خلف كتفى (آشوردان) ، وقفز (صاف) من جلسته المستكينة عندما هدته عينه المنكسرة إلى هوية المرأة ..

ـ مستحيل ، إنها ...

ـ عمل رائع أيها السيد ..

التفت (آشوردان) إلى الصوت الصادر من خلف كتفيه ، وفوجئ بأن الصوت الذى لم يسمعه منذ سنين لم يتغير ..

ـ .. عملك دائمًا رائع يا (آشوردان) ..

ـ (عشتار) ؟!

(عشتار) أيضًا لم تتغير ..

ـ .. بعد كل هذه السنوات ؟!

تقف أمامه فى ردائها المتطاير دونما نسيم ، كأنها لا تقف فوق أرض مستوية ، بين ذراعيها هرتها الناعسة لا تموء ، وفى عينيها تحد وشماتة ..

قالت (عشتار) والسعادة تتقافز من كل ذرة فى ملامحها :

ـ من يعش يلاقِ الآخر يا عزيزى ..

احتمى (آشوردان) خلف بلطته وهو يقول فى غلظة :

ـ أنتِ وراء كل ما حدث أيتها الساحرة ..

ضحكت فى شر مستطير ، قبل أن تقول :

ـ لا تعطنى أكثر مما أستحق يا عزيزى ، ليس من أحد سواك سببًا لمصيبتك ..

سألها مستفهمًا فى شراسة :

ـ ماذا تقصدين ؟!

عادت تضحك وتقول :

ـ مشكلتك أنك لا تفهم ..

قبض على ذراع البلطة أكثر وهو يدمدم كثور أثاره لون أحمر :

ـ كان يجب أن أقضى عليك وقتها ..

ضحكت أكثر وأكثر ، وقالت مستفزة إياه :

ـ أضعت فرصتك الأخيرة ، فقد كنت وقتها فى عنفوان قوتك وأوج فتوتك ..

شهر بلطته فى مواجهتها هاتفًا :

ـ ما زلت أستطيع فعلها ..

قالت ممعنة فى استفزازه لأقصى حد :

ـ حاول ، ولكن على مسئوليتك الخاصة ..

صاح صيحته القتالية التى تبث الرعب فى أقسى القلوب ،

وعدا شاهرًا البلطة نحوها ، فماءت الهرة بينما رفعت (عشتار) يدها ، ليصدر منها برق مفاجئ ، اصطدم بـ (آشوردان) ، وألقاه إلى الخلف لمسافة طويلة ..

اصطدم ظهره بجذع الشجرة التى سقطت ، بينما طارت البلطة لتنغرس فى جذع شجرة أخرى قريبة ؛ كل هذا فى ثانية واحدة ، أو أقل ..

تأوه (آشوردان) ، وقالت (عشتار) فى تشف :

ـ هل تريد المحاولة مرة أخرى ؟!

واصل إطلاق تأوهاته ، فمطت شفتيها لتقول ممتعضة :

ـ .. واحسرتاه على الفارس الذى كان ، أنت الآن أضعف من أن أهبط بنفسى لمنازلتك ، وحيد بلاشىء سوى عارك وهزيمتك التى محت جميع سطور حياتك السابقة ..

صاح فيها وهو يقاوم ألمه باستماتة :

ـ أغربى عن وجهى .

عادت تأكله بكلماتها :

ـ واصل صراخك كما تفعل النساء ، وأكمل قتالك بالكلمات الجوفاء ، أيها الفارس القديم ..

فتح عينيه أخيرًا ، وهدر فيها بكل ما تبقى فى نفسه من كرامة جريحة :

ـ سأنال منك ، سأعرف كيف أنال منك ..

ضحكت فى سخرية وقالت :

ـ سحقًا لفارس يستمد قوته من سيفه ، أنت تقصد سيف القوة الذى أرسلت فى طلبه ، أليس كذلك ؟!

اتسعت عيناه وهو يسألها مذهولاً :

ـ كيف عرفتِ ؟!

برقت عيناها :

ـ لست (عشتار) القديمة المحدودة القيمة والموهبة ، لم أضع سِنِى المنفى عبثًا ، وأنصحك بدورى أن تستفيد منها أقصى فائدة ..

وتابعت وهى تمر بأصابعها فوق ظهر هرتها المستكينة :

ـ .. الرسولة التى أرسلتها لتحضر لك لعبتك ، لن تعود يا (آشوردان) ..

هتف (آشوردان) منتفضًا :

ـ (سيدورى) ؟!

قالت (عشتار) كأن الأمر لا يعنيها ، أو كأنها تروى أملوحة طريفة :

ـ كانت تحبك وكنتَ تعلم ، لكنك ظننته حقًا مكتسبًا أن يقع فى هواك كل من يراك .. وقد فدتك بروحها دون أن تدرك بأنك لا تستحق حتى نظرة تعاطف خرقاء ..

كاد الدم ينفجر من وجه (آشوردان) المحتقن ، وهو يسألها :

ـ ماذا حدث لها ؟!

أخرجت (عشتار) من كمها عقرباء صغيرة ، ورفعتها بإصبعيها قائلة وعيناها تبرقان كقطعتين من اللازورد :

ـ لدغة عقرباء مسكينة ، فى بلاط الملك الطيبى ..

صرخ (آشوردان) فيها حتى كاد يلفظ حنجرته :

ـ سحقًا لك !

زفرت (عشتار) فى ملل ، وقالت مخفية العقرب فى مكمنها :

ـ كلمات .. كلمات .. بوسعى أن أقتلك الآن لكنى لن أبدأ عهدى الجديد بقتل حشرة لا تستحق مثلك ، حشرة تتخفى فى زى فارس ..

بكى (آشوردان) ، وأغرقت دموعه لحيته وملابسه وأرض الجليد ، فيما تابعت الساحرة كأنها تلقى موعظة جديرة بالسماع :

ـ .. سينال كل من اقترف فعلاً جزاءه العادل ، (سيدورى) ماتت ، و(آشوردان) وأعوانه سيهيمون فى البرية حتى تأكلهم الوحوش ، أو يأكل بعضهم البعض ..

بكاء يليق بامرأة ، و(عشتار) تواصل كأنها رجل :

ـ .. وليكن الحارس هو البداية ، حارس غابة الجليد الذى يصحو الآن من بيات السنين الطويلة ..

واختفت !

فجأة رفع (آشوردان) عينيه الطافرتين بالدمع نحوها ، فلم يجدها هنا أو هناك ، دار ببصره حول محور الرؤية المتاح ، لكن شيئًا لم يكن مرئيًا سوى الأشجار والجليد والسكون ..

حاول النهوض لكن قدميه عجزتا عن حمله ، ومن بعيد تعالى صوت الركض المقترب ..

المقترب ..

المقترب بشدة حتى أضحى إلى جواره ..

ـ مولاى الأمير ، ماذا حدث ؟!

صوت (آنو) اللاهث بعد ركضه بما ينوء المرء بحمله من دهون ..

ـ أين ذهبت (عشتار) ؟!

سؤال من (صاف) الذى تلفت حوله بدوره باحثًا عنها بعينه الحولاء ..

سؤال بلا جواب !

★ ★ ★

سوق (فينيقيا) على شاطئ البحر الممتد نحو الأفق الأزرق ، فى وضح النهار الصحو ..

التجار نوو الوجوه المشربة حُمْرَةً ، والشعور المضروبة بشقرة ماء الذهب ، والعيون الملونة بألوان قوس قزح ، والصبايا اللاتى تتفجر وجوههن بالملاحة وقدودهن بالرشاقة وأصواتهن بالعذوبة والأنوثة والدلال ..

الزوارق والأشرعة والأقدام الغائصة فى ملوحة الماء الأجاج ..

البضائع متراصة فى نظام ، أسماك وقواقع وثمار ومصنوعات متقنة ، تاهت فيها أنظار فنان مثل (محب) :

ـ هؤلاء القوم تجرى فى عروقهم دماء الفن بالفطرة ..

قالها وهو يجول بناظريه هنا وهناك ، فقالت (نفرو) باسمة :

ـ لو تركت لنفسى العنان لابتعت عشرات الأشياء ..

قال (محب) حابسًا أنفاسه المبهورة :

ـ أنا لا أجد لنفسى عنانًا !

هزت كتفيها وتابعت :

ـ ربما عندما نعود من الغابة ..

قطب (حورى) قائلاً ، وعيناه لا تنجذبان لأى مما حولهما ، سوى الخيول المطهمة التى يقارن بينها وبين الجوادين اللذين يقودهما :

ـ هذا لو عدنا ..

هتفت (نفرو) فيه بمرح دفين :

ـ لا تكن متشائمًا ..

استوقفهم صوت تاجر شاب مليح الوجه أملس البشرة ناعم الشعر كأنه طفل كبير ، بسؤاله :

ـ عفوًا ، ولكن .. أى غابة تقصدين أيتها السيدة الجميلة ؟!

أجاب عنها (حورى) بسؤال رادع :

ـ هل تتجسس علينا يا (صاح) ؟!

احمر وجه الشاب خجلاً وهو يعتذر بقوله :

ـ لم أقصد ، المعذرة يا سيدى ..

سأله (محب) لينتشله من بحر غلظة (حورى) :

ـ هل تعرف غابة الجليد أيها الشاب ؟!

نظر إليه الشاب فى امتنان قبل أن يسأل مستيقنًا :

ـ غابة الجليد ذات الأشجار المخروطية ؟!

ـ هى بعينها ..

هزّ الشاب رأسه إيجابًا ، واستطرد :

ـ هذا ما خمنته منذ البداية يا سيدى ، وما كان سؤالى إلا لعرض بضاعة تساعدكم على تحمل برودة الطقس القارسة هناك !

وأشار إلى تشكيلة الفراء الطبيعى والعباءات الصوفية الثقيلة التى ترقد فوق منضدته الواطئة ، متابعًا :

ـ .. لن يمكنكم دخولها بملابس خفيفة كالتى ترتدونها ، وإلا تجمدتم على الأقل ..

هزت (نفرو) رأسها قائلة فى حماسة :

ـ وجهة نظر منطقية ، سوف أبتاع بعض الفراء ..

وشاركها (محب) الحماسة لا إراديًا :

ـ وأنا سآخذ هذه العباءة الثقيلة ..

وأتى السؤال من (نفرو) :

ـ وأنت ؟!

ليجيب (حورى) هازًا كتفيه فى لامبالاة :

ـ لن يفت البرد فى عضدى ..

أشارت (نفرو) إلى شىء فوق المنضدة وقالت :

ـ سأبتاع لك هذه العباءة ، هل يعجبك لونها ؟!

نظر (حورى) وقال بنفس اللامبالاة :

ـ لا بأس ..

تجاهل (محب) حوارهما ، وقلب فى العباءات ، فى حين سأل الشاب ذو الملامح الطفولية باسمًا :

ـ هل أنتم مستعدون لملاقاة حارس الغابة ؟!

فسأله (محب) مقطبًا :

ـ وهل للغابة حارس ؟!

اتسعت بسمة الشاب إذ قال :

ـ إنها أسطورة قديمة يتناقلها الأجداد ، حول حارس الغابة الذى هو وحش فى صورة إنسان ، أو إنسان فى هيئة وحشية قاسية .. يقولون إنه يقف عند حدودها ليمنع أى متسلل من الدخول ، وإن من تسول له نفسه مجرد الاقتراب يكون مصيره الأليم أن يلتهمه الحارس المزعوم حيًا ، ويلوك كبده بأسنانه ..

اقشعر بدن (نفرو) وهى تسأل :

ـ حقًا ؟!

هزّ (حورى) كتفيه وهو يعلق بقوله :

ـ خرف عجائز لا أكثر ولا أقل ..

قال الشاب فى مرحلة متوسطة بين الدفاع والتراجع :

ـ إنهم يعزون اختفاء الكثيرين ممن مروا بجوار الغابة أو اخترقوها سيرًا أو ركوبًا إليه ، لكن أحدًا لم يزعم على وجه اليقين أنه رآه ..

سأل (محب) وتقطيبته تظهر فى جلاء أكبر :

ـ وهل اختفى أحد حقًا ؟!

هزّ الشاب كتفيه قائلاً فى بساطة :

ـ لا أحد يعلم هذا أيضًا على وجه اليقين ، البعض يروون القصص لكن المرء لا يستطيع أن يصدق ما لم ير بعينه ..

قال (حورى) :

ـ فى هذه صدقت يا فتى ..

ولما لمح الشاب الشرود فى عينى (نفرو) وعلى قسمات (محب) سارع بالقول :

ـ اعتدنا على التعامل مع الأمر على أنه أسطورة ، برغم أنه لا تواتى أحدًا من أهل (فينيقيا) الشجاعة على الاقتراب ..

واتسعت بسمته وهو يضيف :

ـ ستعودون لتروا لنا كيف أنها محض أسطورة ، أليس كذلك ؟!

سؤال بلا جواب !

ـ .. بالمناسبة ، هـل تبيعنى هـذا الصندوق المطعم فـى المقابل الذى تحدده كيفما شئت أيها السيد ؟!

سؤال بلا جواب .. أيضًا !

★ ★ ★

خطوات تدق فى ممر القصر ..

يصحو (آشوردان) من نومته على أريكة الممر الوثيرة المفضلة ، ويراها ..

ـ من ؟!

الضوء أزرق وأخضر ، والرؤية ضبابية لعينة ..

لكنه يميز ملامحها برغم كل شىء ..

ـ (سيدورى) ؟!

تقف بجواره ، وتمر براحتها الرقيقة على ضفـائر شعره الدقيقة ..

ـ أنا هى ..

نبرتها أكثر رقة وحنوًا ، وملامحها تليق بأم رءوم ، أو بمعشوقة يطير لها القلب ويهتز للمستها الوجدان ، ليست الفارسة ذات الروح الغليظة والنبرة القاسية كما اعتاد منها ..

يحاول أن يعتدل فى نومته قائلاً :

ـ لكنهم أخبرونى أنك ...

تضع سبابتها أمام شفتيه ، تهمس :

ـ لا تصدق أحدًا سواى ..

يحاول أن يتلفت حوله :

ـ ما هذا ؟! إنه قصرى .. ألم نغـادره عندمـا هجم جيش العقارب ؟!

تنظر نحوه وتبتسم ، فينشرح وجهه بالبشر والسرور :

ـ .. أم لعله كان حلمًا صحوت منه الآن ؟!

تحتضن وجنتيه ولحيته بكفيها قائلة :

ـ دعك من الأحلام ؛ ولتعش الواقع يا (آشوردان) ..

يهيم فى نظرة عينيها ، ويسأل مخدرًا :

ـ وكيف ذاك ؟!

تمر براحتها فوق صدره :

ـ اسأل قلبك ..

تمتصه عيناها بعيدًا عن الحياة :

ـ سألته وضللنى ..

ـ لأنك لم تعلمه الحكمة ..

يستغرب وقع الكلمة على أذنيه :

ـ الحكمة ؟!

تهز رأسها أن نعم :

ـ أجل ، نصف الفروسية حكمة ، وبدون حكمة لا فروسية ولا يحزنون !

يلتحم مع جدران عينيها الزجاجية :

ـ وكيف أتعلمها ؟!

تحتويه أكثر :

ـ اذهب إليها ..

ـ أين ؟!

ـ هناك ..

ـ هناك أين ؟!

ـ فى الجبل ..

ـ أى جبل ؟!

ـ جبل الحكمة !

ـ جبل الحكمة ؟!

ـ جبل الحكمة ..

ـ كيف السبيل إليه ؟!

ـ ستعبر إليه بحرًا طويلاً ، ستجده فى نهاية العالم شاخصًا كألف برج يطاول السحاب ، وستمكث هناك ردحًا من الزمن حتى تتعلم ..

ـ وأعود ؟!

ـ تعود فارسًا حقًا ..

ـ وتعود (بابل) ؟!

ـ ويعود (آشوردان) ..

ـ وتعودين يا (سيدورى) ؟!

تتسع بسمتها الحنون ، وتقف ، تتحول إلى شعاع من ضوء أخاذ ، مع دوى صوتها فى الأركان القاصية والدانية :

ـ سأنتظرك يا (آشوردان) ..

ـ انتظرى ، أين تذهبين ؟!

يهتف محاولاً استبقاءها ، لكنها ترحل كشهاب يموت ..

ـ سأنتظرك يا مولاى ..

ـ انتظرى ..

ـ سأنتظرك يا مولاى ..

ـ انتظرى ، أين تذهبى .... ؟!

ـ مولاى .. مولاى .. مولاى ..

★ ★ ★

استيقظ (آشوردان) فجأة على الهتاف المدوى من الخارج :

ـ مولاى .. مولاااااى !

نظر حوله فوجد نفسه نائمًا فى مقدمة الكهف ، داخل فراش من الصوف ، والنار قد خبت جذوتها تمامًا إلى جواره ..

كان يحلم إذن ..

حلم ، ورؤيا !

قاوم شعوره بالبرودة الثلجية ونهض ليرى (آنو) الذى يعدو نحو الكهف صاعدًا فى الصخور المؤدية إلى مدخله ، وهو يرفع عقيرته بالنداء المزعج :

ـ .. مولاى .. مولاااااى !

هتف (آشوردان) فيه زاجرًا :

ـ ماذا هناك يا (آنو) ؟!

رفع (آنو) رأسه إليه ، وهتف :

ـ عذرًا لإيقاظك ، لكن ...

قاطعه (آشوردان) وقد انعدم صبره :

ـ تكلم على الفور .. ماذا حدث ؟!

قال (آنو) من بين لهاثه المضطرب :

ـ كنا نقطع خشب الجذع أنا و(صاف) عندما سمعنا الزمجرة المخيفة ..

نظر (آشوردان) إلى الجذع الوحيد على مبعدة ، وسأل عابسًا :

ـ وأين صاف ؟!

هتف (آنو) بحديثه المتقطع :

ـ ذهبنا أنا وهو فى اتجاه الزمجرة ، ووجدنا آثار أقدام غريبة ..

غمغم (آشوردان) لنفسه :

ـ آثار غريبة ؟!

وعاد يسأل :

ـ .. وأين (صاف) ؟!

ابتلع (آنو) ريقه فى صعوبة ثم قال :

ـ تركته وجئت كى ...

قاطعه (آشوردان) فى قسوة :

ـ أيها الغبى ، تعال ودلنى على مكانه ..

وقفزا الأحجار الهابطة من أمام مدخل الكهف فى سرعة ..

انغرست الأقدام فى الجليد وهما يعدوان ، حتى لاح (صاف) بين الأشجار الضخمة فزفر الفارس وقد اطمأن قليلاً ..

ـ انظر يا مولاى إلى هذه الآثار ..

كان (آنو) قد سقط يلهث فى اضطراب ، وقد عجزت

قدماه المرهقتان عن حمله تمامًا ، بينما اقترب (آشوردان) من البقعة التى يشير إليها (صاف) لاهثًا ، وقطب ناظرًا إلى الآثار المحفورة فى الجليد ، ومغمغمًا :

ـ ما هذا ؟!

كانت آثارًا مجهولة ، لاتشبه رسم باطن القدم لأى كائن حى معروف ..

أشار (صاف) بعيدًا وقال :

ـ إنها ممتدة فى هذا الاتجاه إلى ما لانهاية !

أشار له (آشوردان) بإصبعه قائلاً :

ـ لنتبعها حتى النهاية ..

هزّ (صاف) رأسه وسار خلفه ، وكذلك فعل (آنو) الذى أخافته فكرة البقاء وحيدًا ..

وعند مدخل الغابة الغربى ، كان ثلاثى (لوتس) يمرقون أمام الأشجار الكثيفة ، و(محب) يهتف منتشيًا :

ـ الطبيعة الساحرة لاتكف عن إدهاشى !

قالت (نفرو) مسحورة :

ـ وأنا كذلك !

صمت (حورى) وهو يجر الحصانين خلفه ، بالصندوق القابع على ظهر أحدهما ، وقد استشعر بحاسته خطرًا ما ..

خطرًا قريبًا جدًا ..

كأنه كان يرى زوج العيون الحمراء التى تحدق فيهم من فوق شجرة قريبة ..

زوجًا من العيون قابعًا فى سكون ..

ينتظر عبورهم أسفل الشجرة ، حتى ينقض فوق رءوسهم بكل قوته ..

و .....!

★ ★ ★

٤ـ حـــارس ..

فجأة حدث كل شىء ..

فجأة تصاعدت الصرخة من أعلى ، ومع القفز صرخت (نفرو) مفزوعة ، وتوترت ملامح (حورى) فى شهقة مباغتة ، فى حين لم يصدر عن (محب) أى رد فعل وقد جثم جسم غزير الشعر فوق ظهره ، فأرداه على وجهه فوق الأرض الجليدية ..

جسم حارس الغابة الذى استيقظ بعد سنين من البيات الطويل !

ـ (محب) !

ند الهتاف الجازع عن (نفرو) وهى ترى بعينيها ذلك المخلوق البدائى الكريه المنعدم الملامح إلا من الشعر الكثيف الذى يكسو تفاصيل كل ذراع منه ، وهو يطوق جذع (محب) بذراعيه الطويلين ، وينشب فى جسده المخالب والأنياب ..

صرخ (محب) صرخة ألم فظيع ، وهو يشعر بالنصال تمزق لحمه وتخترق جروحه ، وحاول التملص من قبضة الحارس اللعينة ، لكنه كان متمكنًا منه إلى حد مريع ..

إلى حد أنه بدأ فعلاً فى التهامه حيًا !

التفتت (نفـرو) إلـى (حـورى) صارخـة بكل هلعهـا، وقد احتشدت الدموع حول مقلتيها، دموع الفزع الرهيب :

ـ (حورى)، افعل شيئًا ..

وكأن (حورى) كان ينتظر هتافها هذا حتى يفيق من وجومه تحت تـأثير المفاجـأة، فتحرك بسرعة تاركـا أعنـة الخيل التى صـهلت فى عنـف، كأنهـا تشـارك فى الاحتجـاج على هذه الوحشية التـى تراهـا رأى العين، وتقف عـاجزة عن مد يد المساعدة ..

هرع (حورى) قافزًا نحو الجسم البدائى الغزير الشـعر، ومد ذراعيـه محـاولاً انتزاعـه مـن فـوق جسـد (محـب) الصارخ ألمًا، والمنتفض كطير جارٍ ذبحه، ولكن هيهات ..

لقد رفع الحارس ذراعًا قدت من معدن نحو وجه (حورى)، ولطمه بها دون أن يتزحزح من موقعه فوق جسم (محـب) الذى ما زال يصرخ وينتفض، فطار (حورى) فـى الهـواء وارتطم بجذع شجرة قريبـة، فـى حين واصل الحـارس مهمتـه مع (محب) ..

صرخت (نفرو) وقد بدأت مقـاومة (محب) تنهار، وبـدأت حركته تقل وصياحه يخبو :

ـ كلا، تماسك يا (محب)!

.. كأن بيده أن يفعل ما تقول ..

ونقلت بصرها نحو (حورى) الذى قفز واقفًا برغم الألـم الذى يعتصر جسده؛ لتهتف والدموع تغمر وجنتيها :

ـ افعل شيئًا وإلا سنفقده إلى الأبد ..

هنا حسم (حورى) أمره، ونظر إلى الصندوق المحمول فـوق ظهـر الحصـان للحظـة، قبـل أن يحسـم أمـره ويعـدو نحوه، فيفتحه فى لحظة أخرى؛ ليملأ وهج السيف الماسى وجهه وعينيه ..

هنا حقق (حـورى) مـراده، وأمسـك بمقبـض السـيف، شاعرًا بأنه يومض أكثر، وعزا ذلـك فى نفسـه إلى الضـوء الذى تحجبه سحب السماء الرمادية الكثيفة ..

هنا حمل (حـورى) السـيف الثقيـل، وهـم بالعـدو نحـو (محـب) الـذى مـا زال الحـارس يلتهمـه بأنيابـه ومخالبـه الوحشية، والذى سالت دماؤه فـوق بيـاض الجليد، عندمـا توهج السيف أكثر كألف شمس، وألف نجم وقمـر، وشـعر (حورى) بأن ذراعه التى تحمله لا تقوى على الحركة ..

ـ ماذا تفعل ؟!

صراخ (نفرو)، وتوهج السيف ..

(حورى) قد استحال تمثالاً من الضوء والجليد ، أما (محب) فقد توقف صراخه واستكانت حركته ..

كأنه ..

ـ (محب) .. كلاااااا !!

الحارس يواصل مهمته الهمجية ، ولا يتوقف إلا مع البلطة التى اخترق نصلها الحاد منتصف ظهره بدقة !

بلطة ألقيت من بعيد ، فى نفس اللحظة التى سقط فيها السيف من ذراع (حورى) الذاهل فى جمود ، كأنه أصيب بشلل فى وقفته تلك ..

نظرت (نفرو) فى سرعة إلى مصدر البلطة ، ورأت الفارس الواقف بين الأشجار ، بردائه المعدنى وخوذته الذهبية ولحيته الدائرية ، وخلفه اثنان من أعوانه ، أحدهما بدين والآخر له عين حولاء ، ودون حتى أن تسأل نفسها عن أى شىء انطلقت عدوًا نحو (محب) ، مزيحة جثة الكائن اللزجة من فوقه ، وناظرة نحوه محاولة السيطرة على ارتعاش يديها ..

تركت الطبيبة فى أعماقها تعمل ، فمدت يديها نحو مناطق متفرقة من جسد (محب) لتتحسسها فى سرعة ومهارة ، قبل أن تغمغم فى شىء من الراحة :

ـ ما زال حيًا .. لكن هذا لن يستمر طويلاً ..

اقترب الفارس منهم حثيثًا ، وأشار إلى رجليه قائلاً :

ـ ساعداها فى حمله ..

والتفت إلى (حورى) الذى بدأ جموده يلين قليلاً ، ثم نظر إلى السيف المنغرس فى الجليد قبل أن يقول :

ـ أنتم إذن مبعوثو الأمير (تحتمس) بسيف القوة ..

نظر إليه (حورى) بعينين خاويتين ، قبل أن يتحرك لسانه قائلاً فى صعوبة :

ـ لعلك الأمير (آشوردان) ..

انتزع (آشوردان) السيف من الثلج ، وأراح نصله على راحته ليقول :

ـ باعتبار ما كان أستطيع أن أقول لك نعم ..

قال (حورى) عاقدًا ساعديه أمام صدره :

ـ الأمير (تحتمس) أيضًا لم يعد أميرًا ، وإنما هو ملك الوجهين الآن ..

غمغم (آشوردان) فى لهجة تهكم مرير :

ـ الإمارة والملك ، يا لنا من سذج ..

ثم عاد بالسيف إلى صندوقه فوق الحصان ، وعينا (حورى) تتابعه فى غير فهم ، بينما تعاون (آنو) و(صاف) على حمل جسد (محب) الفاقد وعيه ، تتابعهما (نفرو) التى تعمل يداها فوق الجراح بحنكة وخبرة ..

ـ تصويبك رائع أيها الأمير ..

قالها (حورى) فى غيرة ، وهو يرمق (آشوردان) الذى أغلق الصندوق على السيف ، ومد يده قابضًا على زمام الحصان ؛ ليقول :

ـ ليس هناك فارس أمهر منى فى (بابل) بأسرها ..

هز (حورى) كتفيه سائلاً فى براءة :

ـ كيف سقطت المدينة إذن ؟

نظر (آشوردان) نحوه ليجيبه بسؤال مع مغزى عميق :

ـ ألا ترى فى هذا سببًا كافيًا ؟

وتقدمهم تاركًا إياه يضرب أخماسًا فى أسداس ، وهو يهتف :

ـ اتبعونى إلى الكهف أيها الرسل الكرام ..

ساروا خلفه الهوينى ، دون أن ينتبه أى منهم إلى زوج العيون التى تراقبهم من بعيد ..

عين كحيلة مظلمة بألوان قوس قزح ، لكنها غارقة فى الشرر الغاضب ..

* * *

فتح (محب) عينيه أخيرًا ؛ ليرى ما حوله بصعوبة بالغة ..

ـ ماذا حدث ؟!

نطق بها أيضًا فى صعوبة بالغة ، وقد تحسنت الرؤية قليلاً ..

ـ أنت تولد ثانية يا رجل ..

قالها بدين لم يره من قبل ، سيعرف فيما بعد أن اسمه (آنو) ..

ـ لم أر فى حياتى طبيبة فى مهارتك أيتها الجميلة !

قالها نحيف ذو عين حولاء لم يره من قبل ، سيعرف فيما بعد أن اسمه (صاف) ، موجهًا حديثه إلى (نفرو) الباسمة إلى جواره ، فى هذا المكان الموحش الذى لم يره من قبل ، والذى سيعرف فيما بعد أنه كهف يطل على غابة الجليد ذات الأشجار المخروطية ..

ـ لقد قضيتم على الوحش الذى كاد يلتهمنى إذن ..

قالها (محب) فى صوت واهن ، وهو يجيل النظر فيها حوله ؛ ليقع بصره على (حورى) الواقف فى الجوار مستندًا إلى الحائط الصخرى الداكن ، فكاد يبتسم إليه فى امتنان قبل أن يشير الأخير إلى رجل يجلس بجوار النار الموقدة فى الجوار :

ـ الفضل فى هذا للأمير (آشوردان) ..

نظر إليه (محب) قائلاً :

ـ أشكرك يا مولاى الأمير ..

قال (آشوردان) دون أن ينظر نحوه ، وقد انعكست النيران فى عينيه وقلبه :

ـ وفر الشكر لنفسك ، لم أفعل هذا من أجلك وإنما لأثبت لنفسى أننى ما زلت الأفضل فى التصويب !

تبادل (آنو) و(صاف) نظرة خفية لها مغزى ، فى حين قال (محب) :

ـ لقد أنقذت حياتى فى كل الأحوال ..

غمغم (آشوردان) والنيران تلتهم أشياء كثيرة داخله :

ـ تتفق النهايات برغم اختلاف الطرق إليها ، سخرية القدر مرة أخرى ..

تجاهل (حورى) قوله غير المفهوم موجهًا الحديث إلى رفيقه :

ـ هل تجد فى نفسك القدرة على اتخاذ طريق العودة معنا ؟!

تولت (نفرو) مهمة الإجابة :

ـ الآن ؟! مستحيل .. سيحتاج لبضع ساعات من الراحة التامة على الأقل ..

وسأل (صاف) من باب كرم الضيافة :

ـ وفيم العجلة ؟!

أجابه (حورى) فى بساطة :

ـ لقد أنهينا ما جئنا من أجله ، وسلمناكم السيف سليمًا ..

غمغم (آشوردان) مطرقًا :

ـ السيف الذى من أجله ماتت (سيدورى) ؛ تبًا لفروسيتى !

بادله (حورى) الغمغمة :

ـ نعم ، والسيف الذى عجزت عن حمله وتصويبه إلى حيث أريد !

قال (آنو) ناظرًا إلى (حورى) :

ـ هذا طبيعى ، فسيف القوة لا يحمله إلا من أعطى له ..

قطب (حورى) سائلاً :

ـ ماذا تعنى ؟!

تطوع (صاف) بالإجابة :

ـ للسيف قوة تمنح لحامله عن رضًا ، لحامله فقط ..

هزت (نفرو) رأسها فى تفهم ، وقالت لـ (حورى) :

ـ لهذا لم يطاوعك فى قتال حارس الغابة !

حاول (محب) أن يعتدل من نومته لكن جراحه البليغة والكثيرة آلمته ، فسأل دون أن يتحرك :

ـ لكنى لا أفهم ، فيم قد يفيد سيف كهذا و(بابل) تحت نير احتلال العقارب ؟!

ابتسم (صاف) قائلاً :

ـ يفيد كثيرًا ، لو علمت أنه يمنح حامله القدرة على منازلة العشرات دون أن يصاب بجرح صغير ، فيما يسقط المبارزون قتلى بلا أعناق ..

هتف (حورى) فى غير تصديق :

ـ العشرات ؟!

قال (آنو) مصححًا :

ـ والمئات أحيانًا ..

سأل (محب) مستفهمًا :

ـ أى أنه يمنحك قوة السيف والدرع معًا ؟!

أجاب (صاف) باسمًا :

ـ بل سيوف ودروع جيش كامل لو أردت الحقيقة ..

نظرت (نفرو) إلى الصندوق الماثل فى الجوار ، وسألت :

ـ أى أنه الأمل الأخير فى عودة (بابل) ، أليس كذلك ؟!

هزَّ (آنو) و(صاف) رأسيهما معًا بالإيجاب ، وقالا معًا :

ـ بلى ..

وحده (آشوردان) كان يملك رأيًا مخالفًا :

ـ لكنه لا يكفى !

التفتت إليه الأعناق والعيون المتسائلة ، ودون أن يلتفت هو فسر :

ـ .. القوة وحدها لن تكفى لاستعادة (بابل) !

حملت العيون كلها سؤالاً صامتًا :

ـ ماذا تريد أن تقول ؟!

وكان الجواب :

ـ الحكمة ..

رفع رأسه إليهم أخيرًا وهو يستطرد :

ـ .. لم تكف القوة لدحر العدوان لأنه لم يكن هناك حكمة تساندها ، ولكى نعود إلى (بابل) بمشاعل النور التى ستطرد العقارب ومن مثلهم ، لا بد من دعامتى القوة والحكمة معًا ، يجتمعان فى عقل وذراع فارس حقيقى .. القوة فى العقل والحكمة فى الذراع ، والعكس بالعكس ..

ابتسم (محب) وحده برغم الألم الذى يعتوره ، وقال مغتبطًا :

ـ أتلمس فى حديثك جوهرًا فريدًا يا أمير ، وروحًا جديدة تولد من رحم المأساة ..

سأل (حورى) مستفهمًا :

ـ القوة فى السيف ، والحكمة من أين ؟!

كان جواب (آشوردان) مقتضبًا :

ـ جبل الحكمة ..

هتف (صاف) فى استنكار :

ـ لا وجود لمكان كهذا !

وأيده (آنو) :

ـ بالفعل ، هذه أسطورة نسجتها مخيلة حكماء المدينة السبعة ..

هزت (نفرو) كتفيها مغمغمة فى حيرة :

ـ من يدرى ؟!

والتفت (آشوردان) إلى رجليه قائلاً فى لهجة صارمة :

ـ ظننا حارس الغابة أسطورة أيضًا ..

هتف (صاف) فى عناد :

ـ هذه مسألة أخرى ..

وحاول (آنو) تلطيف الحدة التى اعترت الجو :

ـ كنا نمنى أنفسنا بالعودة إلى (بابل) سريعًا ..

هتف بهما (آشوردان) :

لن نعود إلى (بابل) إلا كما يليق بنا أن نعود ..

عاد (صاف) يهتف مستنكرًا كأنه نسى أنه يحدث مليكه :

ـ ولو بعد سنين ؟!

لكن هتاف (آشوردان) كان حادًا وحازمًا ومسكتًا :

ـ ولو بعد قرون !

صمت وشرار متطاير فى الأثير ..

ثم صوت انهيار مباغت ، وأحجار تتكوم أمام مدخل الكهف !

ـ ما الذى يحدث ؟!

هتف (حورى) بها فى توتر ، وهو يرمق المشهد السريع عاجزًا عن التحرك ..

ـ انهيار صخرى !

قالتها (نفرو) مغمغمة ، وقلبها يخفق بين جوانحها فى عنف ..

ـ سنظل حبيسين ها هنا ؟!

سأل (محب) وهو يحاول طرد الفكرة الملحة من رأسه المثقل ، دون جدوى !

أكل الصمت لسانى (آنو) و(صاف) ، فيما علا صوت الانهيار المباغت أكثر ، حتى سكن كل شىء فى النهاية ، بعد أن سدت الأحجار الثقيلة مدخل الكهف تمامًا ..

وغاب مرأى الأشجار والجليد والسماء الرمادية !

ـ يبدو أننا سنظل حبيسين ها هنا بالفعل ..

قالها (محب) موقنًا باستحالة طرد الفكرة من رأسه ، فيما ران الصمت على الجميع كأن على رءوسهم الطير ، إلا ما كان (آشوردان) الذى غمغم حانقًا :

ـ (عشتار) !

كانت المرأة تقف أمام مدخل الكهف بالفعل ، بين ذراعيها هرتها ، ومن يديها تتكون صواعق البرق الأخيرة بعد أن أنهت ما تريد بنجاح ..

إلا قليلاً !

★ ★ ★

٥ ـ كهف ..

راحت السكرة وجاءت الفكرة ..

ـ ماذا سنفعل ؟!

ند السؤال عن (محب) الذى قلب عينيه فى وجوه من حوله ، وكان (حورى) أول من تحرك حاملاً قطعة من المعدن نحو المدخل المسدود بالأحجار ..

انهال (حورى) بقطعة المعدن على الجدار ، مرة ومرة ومرة ، لكنه كان أكثر صلادة من أن يستجيب للطرقات التى بدت ـ على قوتها ـ هينة ..

ـ على رسلك يا (حورى) ..

قالتها (نفرو) محاولة طرد التشاؤم من صدرها ، والتفكير فى حل بديل ..

ـ لا تستنزف طاقتك فيما لا يفيد ..

قالها (آشوردان) فتوقف (حورى) أخيرًا ، والتفت إليه هاتفًا فى حنق :

ـ أنت لا تريدنا أن نموت ها هنا بكل تأكيد ..

ـ من قال هذا ؟!

وأردف (آشوردان) فى تؤدة :

ـ .. أريد فقط أن نتحلى ببعض الحكمة ..

انعقد حاجبا (حورى) وهو يردد مستغربًا :

ـ الحكمة ؟!

نهض (آشوردان) من فوق قطعة الحجر التى يجلس فوقها أمام النار ، واقترب من حيث يقف (حورى) ليقول :

ـ الحكمة قد تخرجنا من هنا إلى هواء الحرية ، فالقوة وحدها ليست بكافية للتغلب على امرأة كـ (عشتار) ..

عاد (حورى) يردد :

ـ (عشتار) ؟!

قال (صاف) متطوعًا بالتفسير كما يفعل دومًا :

ـ ساحرة (بابل) التى نفاها الأمير (آشوردان) منذ سنين طويلة خلت ..

أكمل عنه (آنو) :

ـ عادت اليوم لكى تتشفى فينا ، وتنتقم ..

غمغم (آشوردان) وقد عاودته الذكرى البغيضة :

ـ ليتنى قتلتها يومها ..

وغمغمت (نفرو) كأنها تفكر بصوت عال :

ـ يا لبشاعة الانتقام حينما يصدر عن امرأة !

عاد (حورى) بالحديث إلى مجراه الرئيسى إذ سأل ، وقد شاب لهجته خيط من التهكم :

ـ وكيف يمكن أن تساعدنا الحكمة على الخروج من هنا إلى هواء الحرية ؟!

لم يجبه (آشوردان) بالكلمات ، وإنما حمل فرعين خشبيين من كومة الأخشاب المكومة إلى جوار الموقد ، وأوقدهما من الجذوة المشتعلة ، ثم ناول (حورى) واحدًا منهما ؛ ليطل عدم الفهم جليًا من عينى الأخير وهو يتساءل :

ـ .. ما معنى هذا ؟!

قال (آشوردان) فى برود لم يخالطه انفعال :

ـ ستتبعنى ..

قطب (حورى) وهو يتساءل مجددًا :

ـ إلى أين ؟!

أشار (آشوردان) إلى الجهة الأخرى من الكهف ، حيث الظلام والمجهول :

ـ هناك .. إلى الجهة الأخرى من الكهف !

حدق الجميع فى قلب الظلام قليلاً ، قبل أن يسأل (حورى) فى تردد :

ـ هل دخلت إلى هناك من قبل ؟!

ـ ليس بعد ..

ـ وما يدريك أن هناك مخرجًا بعد الظلام ؟!

ـ لا شىء يدرينى ، لكن الأمر يستحق بعض المخاطرة ..

تناول (حورى) المشعل من يد (آشوردان) أخيرًا ، وآلاف الخواطر تصول وتجول ما بين عقله والقلب ، لكن خوفه من الاتهام بالجبن تغلب عليه فى النهاية ، فسار خلف فارس الشرق مغالبًا مخاوفه والمحاذير ..

ـ خذا الحذر ..

ند الهتاف عن (نفرو) ، التى لمح (محب) أمارات القلق على قسماتها جلية ، محاولاً تجاهل الأمر وهو يعلم أنه لن يستطيع ..

ـ ستعودان لأخذنا ، أليس كذلك ؟!

سأل (آنو) ، فالتفت إليه (آشوردان) مجيبًا :

ـ بالتأكيد ، المهم أن تحافظا على السيف حتى نعود ..

ونظر إلى الصندوق نظرة أخيرة ، قبل أن يبتلعه الظلام هو و(حورى) ، كفكى وحش مرعب أطبق عليهما ..

بلا أدنى رحمة ..

★ ★ ★

الخفافيش نائمة وملتفة حول نفسها فى سكون وسكينة ..

نيران المشعلين والتقدم الحذر ..

الجدران الصخرية وقطرات الماء تترى من السقف الرطب على الأرضية الزلقة ..

النيران والتقدم ..

رائحة قوية يمتزج فيها العفن بالرطوبة بالهواء المكتوم ..

نيران وتقدم ..

وجثث ..

جثث متحللة وبقايا عظام ، بشر وحيوانات وكائنات أخرى !

سعل (حورى) وقد دار رأسه لما يرى ويشم ، ورفع جزءًا من ثيابه ليغطى فتحتى أنفه علّه ينقى بعض الهواء ، بينما واصل (آشوردان) تقدمه دون أن يعيقه شىء ، كأنه يعرف طريقه جيدًا ..

ـ كأن لا نهاية لهذا الكهف !

قالها (حورى) ليدوى صدى صوته فى الأنحاء ، فاقشعر بدنه لوهلة قبل أن يدوى صدى صوت (آشوردان) ، الذى قال :

ـ لكل شىء نهاية ..

أمعنا فى التقدم ، وبدأ الماء تحت قدميهما يعلو حتى الكواحل ..

ـ اقترح أن نعود أدرجنا ونحاول مع الحائط الصخرى !

قالها (حورى) من باب اليأس ، أو الخوف الذى يحاول إنكاره ..

وقال (آشوردان) :

ـ ليس هذا من الحكمة فى شىء ..

واصلا التقدم ، وكاد (حورى) يسقط ، إذ تعثر فى صخرة نائتة ، لكن يد (آشوردان) أنقذته من السقوط ، وهمًا بمواصلة التقدم ، عندما ..

سقطا معًا فى بركة عميقة من المياه الآسنة ، وانطفأ المشعلان بغتة ..

وجد (حورى) نفسه يقاوم الغرق بذراعيه وقدميه ، فقاعات الماء أمام عينيه فى الماء المعتم باخضرار ، وهو يحاول الصعود إلى أعلى بجهد جهيد ..

حاول وحاول ، واخترق برأسه الماء فى النهاية ليعب من هواء الكهف العفن ، شاعرًا هذه المرة بأنه هواء ربيعى له رائحة العطر وتفتُّح الأزهار..

تمالك (حورى) نفسه بسرعة لينظر حوله ، ولم يجد لـ (آشوردان) أثرًا ..

ـ أيها الأمير .. (آشوردان) .. أيها الفارس من الشرق !

وما من مجيب إلا الصمت ، والعفن ، والفقاعات المتجمعة على سطح الماء الآسن ..

أدرك (حورى) أن نجاته لم تتم بعد ، وأن عليه الغوص ثانية فى العمق الراكد ، بحثًا عن حياة ربما لم تعد هناك ..

بالمرة ..

★ ★ ★

الأرض خضراء ، والسماء زرقاء ، والجبل أرجوانى من بعيد ..

جبل من الصخر يتبدّى طودًا راسخًا ، قمته بعيدة فى السماء تتمحور حولها سحابة دائرية من قطن أبيض ..

و(آشوردان) فى القارب المبحر داخل المياه الشفافة مثل الكريستال ، يغمغم :

ـ الجبل ..

(سيدورى) فراشة بجناحين من ضوء ، تطير من حوله لتضىء له الدنيا والقلب ، وتهمس برحيق العشق المبرح :

ـ جبل الحكمة يا (آشوردان) ..

يسألها حائرًا :

ـ هذا الجبل ، فأين هى الحكمة ؟!

تضىء بابتسامة ، وتجيب :

ـ الحكمة فى قلب الجبل ..

يسألها ثانية ولما تتبدد حيرته :

ـ وكيف أصل إلى قلب الجبل ؟!

تضىء وتجيب :

ـ الجبل فى قلبك يا عزيزى ..

تزداد حيرته أضعافًا :

ـ لا أفهم .. ماذا تقصدين ؟!

تغمزه فى حب :

ـ ستفهم ، عندما تصل ..

وتبتعد ..

ـ إلى أين ؟!

ـ إلى حيث نلتقى يا (آشوردان) ..

ـ انتظرى ..

ـ سأعود ، وستعود ..

و ....

★ ★ ★

سِعل (آشوردان) بشدة وهو يفتح عينيه مع عودته للوعى ، مبتلاً فوق أرض الكهف الصخرية ، ليطالعه الظلام الدامس ..

ـ عدت بسلام !

نظر (آشوردان) إلى جواره ، ووجد (حورى) ـ على بصيص خافت من الضوء ـ يجلس باسمًا والماء يقطر منه هو الآخر ، فسأل :

ـ ما الذى حدث ؟!

ـ العائدون إلى الوعى يسألون دائمًا هذا السؤال ..

وأردف (حورى) :

ـ .. كدنا نغرق ، هذا كل ما فى الأمر ..

عاد (آشوردان) يسأل :

ـ وأنت أنقذتنى ؟!

أجابه (حورى) بسؤال :

ـ وهل سيصنع هذا فارقًا ؟!

ـ بالتأكيد ..

ـ أنقذت حياة رفيقى وأنقذت حياتك ، دين بدين !

اعتدل (آشوردان) فى جلسته ، وهو يسأل :

ـ وهل سنعبر الماء مرة أخرى ؟!

أجابه (حورى) باسمًا :

ـ نحن على الضفة الأخرى بالفعل ..

ثم أشار إلى نقطة ما متابعًا :

ـ .. وإليك المخرج من هذا الظلام ..

نظر (آشوردان) إلى الجهـة التى يشير إليهـا ، وانفرجت أساريره عندما لمح بقعـة الضوء الصغيرة فى نهاية الممر الطويل ..

ـ .. لو كنت أخف وزنًا بقليل لحملتك حتى هناك ..

قالها (حورى) مداعبًا ، فى حين قفز (آشوردان) واقفًا وقد سرت الدماء الساخنة فى عروقه ، وهتف فى لهفة :

ـ هيا ، إلى هناك بلا لحظة تأخير ..

نهض (حورى) بدوره قائلاً :

ـ ليس لدى ما يمنعنى من الامتثال ..

وبكل ما تبقى فى جسديهما من طاقة انطلقا عدوًا نحو الضوء فى نهاية الممر ..

ونحو الأمل الأخير ..

★ ★ ★

٦ ـ رحيل ..

ـ تأخرا ..

قالتها (نفرو) مغالبة قلقها ، فهز (محب) كتفيه وقال فى محاولة للتهوين لم تقنعه هو شخصيًا :

ـ ربما كانت المسافة إلى الجانب الآخر طويلة نوعًا ..

هز (صاف) كتفيه وقال فى تشاؤم ، ملقيًا ببعض الأحطاب إلى النار الموقدة :

ـ هذا إن كان هناك جانب آخر بالفعل ..

سأله (محب) مبتسمًا :

ـ ألا تؤمن بوجود شىء يا عزيزى ؟!

أجابه (صاف) مزدريًا :

ـ إن كانت كل الأشياء من قبيل جبل الحكمة ، فأنا لا أومن حقًا بوجود شىء !

ـ أنا لم أسمع عن أمر كهذا من قبل ..

قال (آنو) مستطردًا ، فى محاولة لإرجاء الوقت الطويل :

ـ كان لمدينتنا (بابل) يا عزيزى أبواب سبعة ، ومجلس حكماء سبعة يرجع إليه الحاكم قبل البت فى أى شأن من الشئون ، وفى عهد الأمير (جلجامش) والد أميرنا (آشوردان) ، حدث خلاف بين الحاكم والحكماء ، طُردوا على إثره من المدينة ، وقيل إنهم اختاروا جبلاً بعيدًا مستقرًا لهم ، سمى بجبل الحكمة ..

غمغم (صاف) :

ـ أراهن على أنهم هم من أطلقوا هذه الشائعة حفظًا لماء وجوههم بعد أن غادروا المدينة وتاهوا فى البرية بلاوجهة أو سبيل ..

قال (آنو) :

ـ جميعها أقاويل تحتمل الحقيقة أو الافتراء ، المهم أن جبل الحكمة هذا ظل مكانًا تهفو إليه أفئدة الحالمين بالمطلق ، علماء وفنانون وطالبو حقيقة كثيرون شدوا الرحال نحوه ، لكن من عاد قال إنه لم يصل إليه ، وهناك من لم يعد من رحلته أبدًا ..

سأل (محب) فى اهتمام :

ـ أى أن أحدًا لم يخبر صراحة أنه رأى الجبل رأى العين ؟!

هز (آنو) رأسه نفيًا وهو يقول عن يقين وقناعة :

ـ على الإطلاق ..

وأتبع (صاف) معلقًا :

ـ هذا ما يجعل الحكاية أوْهَى من بيت العنكبوت ، ويجعلها عصية على التصديق ..

قال (محب) :

ـ الكثير من الحقائق عصية على التصديق يا عزيزى ..

قال (صاف) معاندًا :

ـ لن يقنعنى هذا بوجود جبل من خرافة ، اسمه جبل الحكمة !

ـ تأخرا ..

عادت (نفرو) تنطق بها فى قلق ، دون أن تواتى أحدًا من الرجال الثلاثة القدرة على طمأنتها حتى ولو بكلمة ..

ـ سيغييان طويلاً !

التفتوا إلى مصدر الصوت ، وارتفع حاجبا (آنو) حتى كادا يقفزان من فوق وجهه وهو يصيح مأخوذًا :

ـ (عشتار) ؟!

غمغم (محب) وقد اندهش بدوره :

ـ ساحرة (بابل) ؟!

قالت المرأة التى ما زالت تحتضن هرتها بين ذراعيها :

ـ الأولى والأخيرة ..

جاهد (صاف) للقول من بين نبراته المحتبسة :

ـ كيف دخلت إلى هنا ؟!

ابتسمت فى شر ، وتسلقت الهرة ذراعها حتى الكتف وهى تقول :

ـ الجدران لا تقف عائقًا أمام من يحمل قوتى ..

اتكمشت (نفرو) على نفسها فى خوف ، بينما أشارت (عشتار) نحوها هاتفة :

ـ .. واسألوا هذه الجميلة عن قوة الأنثى !

تمالك (محب) نفسه ، وسألها على الفور :

ـ هل أتيت للتشفى فينا ونحن نموت هاهنا ؟!

ضحكت ، وقالت :

ـ لست بهذه التفاهة أيها الطيبى الجريح ..

ثم أرسلت عينيها البراقتين نحو الصندوق المجاور للنيران ، متابعة :

ـ جئت أستكمل ما ينقصنى نحو القوة المطلقة ..

هتف (آنو) مصعوقًا :

ـ رباه .. السيف ؟!

تقدمت من الصندوق فى نعومة كأنها تسير بلا قدمين ، فى حين صاح (صاف) بغضب :

ـ لا ، هذا سيف (آشوردان) !

نظرت إليه فى قسوة وقد مدت يدها إلى الغطاء :

ـ حاول منعى إن استطعت ..

احتبست الكلمات فى حلق (صاف) ، لكنها لم تحتبس فى حلق (محب) :

ـ لن يفيدك أخذه شيئًا ، إنه لا يمنح القوة إلا لصاحبه ..

قالت فى سخرية وهى ترفع الغطاء فى بطء :

ـ لا تحدث ساحرة عن القوى السحرية أيها الفتى !

وتوهَّج الضوء الأبيض فى وجهها وعينيها ..

مدت يدها إلى المقبض ، وحملت السيف فى خفّة كأنها تحمل ريشة ، نظرت إليه مليًا قبل أن يلتمع الظفر فى ألق عينيها ، وهى تهمس لنفسها :

ـ الآن تحقق (عشتار) انتقامها الفعلى ..

ومدت السيف فى اتجاه المدخل المسدود بجدار الصخور ، فانبعثت من النصل الماسى بروق أعشت الأبصار ، وتفجر الرعد من الضربة القاصمة التى ألقت بالأحجار فى الهواء إلى الغابة القريبة ..

وانفتح المدخل مجددًا ..

ـ يا للقوة ..

غمغمت بها (عشتار) فى رضا وهى تلمس النصل الحاد بأناملها الطويلة ، فى حين ماءت الهرة فوق كتفها فى شبق ..

واختفت المرأة فجأة كما ظهرت فجأة ..

تلاشت من أمام أعينهم كأنها لم تكن هناك من الأصل ، فى نفس اللحظة التى ظهر فيها الفارسان أمام المدخل المفتوح ؛ (آشوردان) و(حورى) ..

ـ ماذا حدث هاهنا ؟!

سأل الأول فى توتر ، وأعقبه (حورى) بالسؤال :

ـ كيف انفتح المدخل ؟!

لم يقابلهما إلا الصمت المطبق والذهول الذى عقد الألسنة ، لكن نظرة من عين (آشوردان) نحو الصندوق المفتوح أفهمته كل شىء ..

الصندوق المفتوح الذى دنا منه ليكتشف أن السيف ليس فى داخله ..

توقع الجميع أن يثور ..

أن يرغى ويزبد ويهدد ويتوعد ..

أن ينهار بعد أن تبخر أمله الأخير ..

لكن أن يبتسم فى رضا ؟!

لقد فاق هذا تصورات الجميع ، حتى (حورى) نفسه !!!

★ ★ ★

شاطئ (فينيقيا) فى غبش الفجر المرتسم من خلف الأفق الممتد ، وزورقان من البردى فى استعداد لإبحار طويل ..

ـ إنه الرحيل إذن ..

قالها (حورى) من مقدمة قاربه ، ناظرًا نحو (آشوردان) الواقف على مقدمة القارب المواجه له ..

ـ ليس هناك بديل .. سأعمل على إصلاح خطأ أبى ، فالحكمة وحدها ستعود بى إلى (بابل) كما أحلم ويحلمان ..

قالها (آشوردان) مشيرًا إلى رَجُليه الغارقين فى النوم داخل القارب ، وقد أنهكتهما الرحلة الطويلة ..

ابتسم (محب) قائلاً من مرقده داخل القارب الآخر ، وبجواره (نفرو) تعتنى بجروحه :

ـ أراهن على أن أهل (بابل) سينتظرون عودتك إليهم بفارغ الصبر ..

هزّ (آشوردان) كتفيه ، وأرسل بصره إلى المدى البعيد قائلاً فى شىء من الوجل :

ـ من يدرى ، ربما أعود وربما ..

ـ ستعود ..

قالها (حورى) فى يقين ، فسدد إليه (آشوردان) نظرة حيرى ليراه ويسمعه يتابع :

ـ .. الشرق فى حاجة لفرسان مثلك ، يبحثون عن الحقيقة ويعودون بها إليه مغلفة بالحكمة والعدل والحرية والإيمان !

أرسل (آشوردان) بصره إلى الجهة الأخرى مغمغمًا :

ـ نعم ، الشرق المنكوب ..

سألته (نفرو) وقد فرغت من معاينة آخر جراح (محب) :

ـ ماذا لو لم تجد الجبل ، ووجدته ـ كما يقال ـ محض وهم ؟!

ابتسم (آشوردان) قائلاً :

ـ ليس أمامى إلا أن أجده ..

قال (حورى) مؤمنًا :

ـ لهذا ستجده ، أستطيع أن أرى هذا كأنه حدث بالفعل ..

وقال (محب) :

ـ وستعود .. حتمًا ستعود لتحرر (بابل) .. وربما الشرق كله ..

قالت (نفرو) وهى تنهض واقفة فى منتصف القارب :

ـ لا يسعنى إلا أن أتمنى لك التوفيق أيها الفارس ..

رفع كفه يحييهم ، ثم جلس ممسكًا بالمجدافين ، ومبحرًا فى اتجاه معاكس للذى أبحر نحوه قارب (لوتس) ، بعد أن أمسك (حورى) بالمجدافين وجدف ..

ومن بعيد ، كانت الشمس تبدأ رحلة الشروق ، إيذانًا بموت يوم ..

وميلاد يوم آخر ..

★ ★ ★

٧ ـ عقارب ..

وقف (دلفى) أمام عرش العقرب الكبير ، فى القصر الكائن بقلب (بابل) ، وهتف :

ـ أخبار سارة يا مولاى ..

صاح فيه العقرب فى استثارة :

ـ أخبرنى أنكم عثرتم على (آشوردان) الوغد !

ابتسم (دلفى) ، وقال هازًا رأسه يمنة ويسرة :

ـ كلا ، ليس (آشوردان) ..

صاح العقرب الكبير مخمنًا :

ـ أحد رجاله إذن ؟!

غمزه (دلفى) سائلاً :

ـ ماذا عن النساء ؟!

برقت عينا العقرب الكبير ، وهو يهتف كأنما عثر على كنز :

ـ لا تقل إنها ..

وعجز عن إتمام العبارة ، فأتمّها له ساعده الأيمن :

ـ هى ، (عشتار) !

اتسعت عينا العقرب الكبير وهو يصيح فى ذهول غير مصدق :

ـ قضيتم عليها ؟!

هز (دلفى) رأسه بالإيجاب هذه المرة ، وقال متجاوزًا شهقة زعيمه :

ـ لا يفل السحر إلا السحر يا مولاى .. لقد تحالفنا مع أحدهم على أن يصبح كاهن المدينة الأوحد ، وعلى أطراف المدينة احتدم الصراع بينهما حتى حسمه رجلنا ..

سأل العقرب الكبير كأنما تهمه هذه النقطة بالذات :

ـ وماذا كان مصيرها ؟!

قال (دلفى) فى غبطة :

ـ فرت تجرجر أذيال خيبتها نحو الغرب ..

ردد العقرب الكبير فى لهجة خلت من الرضا :

ـ فرت ؟!

واستدرك (دلفى) بقوله :

ـ لكنها تركت شيئًا سيروق لك حتمًا يا مولاى ..

انعقد حاجبا العقرب الكبير ، بينما فرقع (دلفى) بإصبعيه ليدخل أحد الحراس بخونته السوداء حاملاً جسمًا عريضًا مغطى بالحرير ..

ـ ما هذا ؟!

سأل العقرب الكبير ، وأجاب (دلفى) ممسكًا بطرف الغطاء الحريرى :

ـ لا أحد يمكنه أن يلدغ العقرب يا مولاى ..

وسحب الغطاء بسرعة ، ليبدو أسفله السيف الماسى .. سيف القوة ووهجه الأخاذ الذى يخلب الألباب ..

نهض العقرب الكبير من مجلسه على العرش ، واقترب من السيف كأنما تجذبه إليه قوة أكبر منه وأعتى ..

وتبسم (دلفى) راضيًا عن نفسه كل الرضا ..

لقد كان محقًا ، لا يوجد من يمكنه لدغ العقرب ..

لكنه نسى أن العقارب يمكن أن تلدغ نفسها ..

أحيانًا !

★ ★ ★

[تمت بحمد الله]

مغامرات خيالية من مصر الفرعونية

محمد سليمان عبد المالك

لوتس فارس من الشرق

شعرة رقيقة تفصل ما بين الفارس وحلمه ..
شعرة لو انقطعت لفقد الفارس نفسه ، ولفقد الحلم معناه ، ولضاع الأمل فى الأفضل ..

إن حلم الفارس ليس إلا مرآة ، إما أن تعكس طموحه الفردى ، وإما أن تمتصه فى داخلها لصالح المجموع ..

يتساوى فى هذا الشمال والجنوب ، والغرب والشرق !!

الثمن فى مصر ٢٥٠ ومايعادله بالدولار الأمريكى فى سائر الدول العربية والعالم

العدد القادم

(خلف الجدار الأبيض)

طباعة ونشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

مطابع سلاح التلميذ